سِراجُ الدُّلْجة في فضلِ طَنْجة

تأليف:

العلّامة المطّلِع المحدِّث النّاقد

صاحب التآليف و التصانيف المفيدة

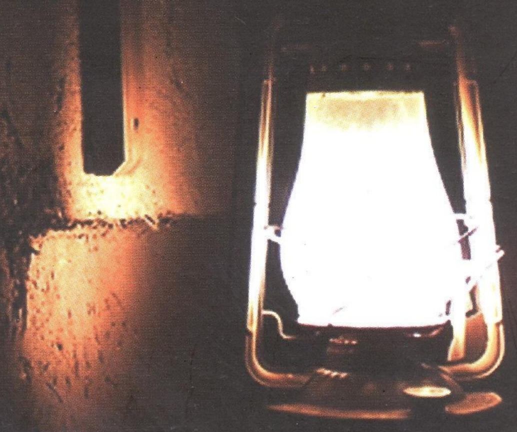
سيدي عبد العزيز بن محمد بن الصديق الحَسَني الطَّنْجِي

تقديم:

عبد الله عبد المومن

تصدير:

عبد المنعم بن الصديق



سِراجُ الدُّلجة
في
فضلِ طنْجة

تأليف:

العلّامة المطّلِع المحدِّث النّاقد

صاحب التآليف و التصانيف المفيدة

سيدي عبد العـزيز بن محمد بن الصديق الحَسَـني الطَّـنْجِي

تقديم:

عبد الله عبد الـمومن

تصدير:

عبد المنعم بن الصديق

الكتاب : سِراجُ الدُّلْجة في فضلِ طَنْجة
المؤلف : سيدي عبد العزيز بن محمد بن الصديق الحَسَني الطَّنْجِي
تقديم : عبد الله عبد المومن
مطبعة : سليكي أخوين - طنجة
الهاتف : 05.39.32.31.80 - 06.61.17.08.78
الحقوق : محفوظة
الطبعة الأولى : صدرت سنة 1375هـ / 1956م
الطبعة الثانية : ماي 1434هـ / 2013م
الإيداع القانوني : 2013MO1876
الترقيم الدولي : 978-9954-609-21-7

نُتوِّج صدر هذا الكتاب بالكلمة الذهبية الخالدة التي جاءت في خطبة جلالة الملك المحبوب، في حقِّ بلدتنا طنجة، عند زيارته لها في: 19 جمادى الأولى سنة 1366 هـ موافق 15 أبريل سنة 1947 م.

قال حفظه الله ونصره:

«... وآنَ أن نزور عاصمة طنجة التي نَعُدُّها من المغرب بمنزلة التاج مِنَ المَفْرِقِ، فهي باب تجارته، ومِحور سياسته، وعنوان محاسنه الوهاجة، وفي صفحات مجدِه أجمل ديباجة. بُنِيَت في أول العهود مِنْ تاريخ البشر، طالما اِزدهَى المغرب ببهجتها واِفتخر. فجدَّدنا بها عهد زيارة جدِّنا المقدس مولاي الحسن لِنُزيل عن عَينِ غَفلتِها الوَسَن، لذلك أمَّمْنا وجهتها الميمونة، لنتفقد شؤونها المصونة، حاملين إلى ساحتها بشائر العناية، ونَزفُّ إلى سكانها براهين الاعتبار والرعاية، ليعلَموا أنهم في صفٍّ الملحوظين بين رعايانا المخلصين، وفي طليعة المميزين بقوى النجدة بين العاملين...».

تقديم

حمداً لله بلا بداية وثناء بلا نهاية وصلاة وسلاماً على نبي الرحمة والهداية،

لم يكن منهج المحدثين بدعا لما سنّوا الكتابة في تاريخ البلدان، ووضعوا معاجم فيمن استهلّ بها أو نشأ وترعرع أو حلّ وارتحل من الزوّار والركبان، وفي كلٍّ مزجوا تاريخا وسِيَرا بآثار وعمران، وتحققوا من توظيف منهج الجرح والتعديل في سبر أغوار التاريخ ونبض الخبر وتجلية العبر، فأسسوا لعلم التاريخ الإسلامي بنيانا سامقا مستصحبا دلاءٍ ومسالك سدّدوا بها مسار الكتابة في تاريخ العلوم الإسلامية.

وليس هذا بخفي على من طالع كتب الحفاظ المتقدمين كابن عساكر في تاريخ دمشق، وبحشل في تاريخ واسط، والبغدادي في تاريخ بغداد وذيليه لابن النجار وابن الدبيثي، وأبي نعيم في تاريخ اصبهان، والحاكم في تاريخ نيسابور، والرافعي في تاريخ قزوين، والسيوطي في حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة وغيرهم.

وليس أيضا سوق هذا على سبيل الاستئناس بل لدرك الائتمام والاهتمام بمنهج في الدراسة الحديثية تجاوز السند والمتن إلى الديار والآثار، فأحاط بالنشأة والتأسيس، وبكل ما يحصل في أحوال الناس من الخلطة والتأنيس.

وكتاب «سراج الدّلجة في فضل طنجة» للعلامة المحدث الأثري السيد عبد العزيز بن الصديق رحمه الله من هذا القبيل، إذ لما كان تاريخ طنجة مما لا غنى عنه في الإحاطة بتاريخ المغرب بعدوتيه، اعتبارا لمكانة طنجة من بين مدن المغرب، ثم لتشكيلها حلقة وصل بينه وبين الأندلس، لم يك هنالك بد من الإلمام بتاريخها وأثرها الحافل في الوصل بين الصقعين، والمزج بين النيرين.

وهذا لعمري حقيق بما خلفه أهل العلم ممن غبر من وَصل حقيقي بين ديار الغرب الإسلامي، شكلت فيه طنجة قطب الرحى، نظما ونثرا، واستصحب فيه تاريخها الثناء على مآثرها والاعتداد بمفاخرها، سواء من قبيل خلابة منظرها وتمام حسنها وبهجتها، أو من قبيل حلول أهل العلم بها على مر العصور، مما أضحى مجدا تليدا تقلدت به وسام العزة والشرف على مر التاريخ.

ومن هنا كانت بادرة تأليف هذا الكتاب الجمّ الفوائد الفريد الزوائد، والذي يعد بحق فاتحة سنية في تاريخ المغرب، بالتأريخ لإحدى مدنه التي لولاها لما عرف المغرب في مراحل مبكرة من تاريخه إن قبيل الفتح الإسلامي أو بعده.

فهو وإن صرح المؤلف في داعي تأليفه ردّ دعاوى عارية عن الحجة والبرهان، وتفنيد المزاعم بما اتضح وبان، في نعت طنجة وأهلها بالقصور

في المعارف بل الخلو من أهل العلم دون سائر البلدان، لكنه بحق مقدمة منهجية سديدة في ترسيخ منهج المتقدمين في الإلمام بحضارة الأمم والأمصار، والتي قد يذبل بريقها ويفتر صداها كلما تاه الناس في مصالح المعاش غُفلا عن مراسي الحضارة التي قام عليها البنيان والعمران. ولذا كان ومازال استنهاض الهمم بحثا في تاريخ الحضارات والبلدان من مقاصد القرآن في الحث على السير في الأرض واستتباع مقومات النهوض جمعا بين حاضر الأمة وماضيها المتلال، إذ لسنا فيمن مضى -كما قيل- إلا كبقل عند أصول نخل طوال.

ولعل أهم ما يميز الكتاب في نظري أمور من الأهمية بمكان:

1- جلالة قدر مؤلفه باعتباره أحد أعلام السنة وأحبار الحديث في زمانه، والذي اضطلع بحق بمزية عالية في الصناعة الحديثية يكشف عنها بجلاء نفَسُه الذي لا يضاهى في خبْر الأسانيد والدراية بالرواية والتحقق من أحوال الرجال في مقامات الركون والارتحال، وتلك مزية تدرك عند أهلها، ولذا وكلما كتب في التاريخ فسوف يكتب بمنهج المحدث الخريت، وهو ما تميز به في كتابه ونظراته، وإن كان الكتاب جد مختصر لكنه بحق مقدمات ممهدات للكتابة في تاريخ طنجة، إذ لم يقصد منه المؤلف إلا حلقة في الكتابة التاريخية وهو الإفصاح عن الفضائل والمفاخر لا غير.

2- المنهج المتبع في جمع أخبار طنجة من بطون الكتب والمصادر وإن شحّت، ومحاولة إضفاء صبغة التمحيص للرواية والتحقيق للدراية الكامنة في أخبار طنجة وآثارها.

3- توصل المؤلف إلى التأسيس لتاريخ العلم في طنجة منذ الفتح الإسلامي، ابتداء من عهد الفاتحين والذي عده رحمه الله فتحا روحيا بقوله: «لأن الإسلام يعتمد على الفتح الروحي، بل ذلك غرضه الوحيد من الغزو للبلاد، وذلك لا يكون إلا عن طريق رجال العلم من أهله وحملة الدين من شيوخه وشبابه».

وتلك مزية مدينة لطالما استقر بها أو مرّ بها فلول العلماء ونوابغ النجباء. ولذا عمل المؤلف على تتبع أخبار العلماء وفتح باب استقصاء آثارهم حسب تصنيف العلوم والفهوم.

4- توكيد المؤلف المراد من قول المفسرين في تأويل قوله تعالى: «مجمع البحرين» أنه بلدة طنجة لا غير، ومناقشته غير ذلك من الآراء مع تفنيدها، مستمسكا بدليل الأثر والنظر.

5- الجمع بين الحقيقة التاريخية والعلمية في سبك حلي فضائل طنجة، في فصول بديعة ضمنها المؤلف الحديث عن أهل الحديث والرواية ابتداء، وأهل الفقه، وأهل النحو واللغة، وأهل الأدب، وأهل التاريخ وغيرهم.

وقد حاول المؤلف رحمه الله جاهدا وإن لم يسعفه الإبّان كما صرح بذلك وكشف عنه في ثنايا الكتاب، أن يستقصي أمهات الأخبار والآثار الواردة في فضل طنجة وميزتها. وذلك وإن لم يكن قد تهيأ له استقصاؤه لحائل دون ذلك، فإنه قد فتح الباب وفتق الجلباب حتى يتهيأ للباحث في تاريخ المغرب وحواضره أنه قد بقي مدينا في ذمته باستتباع جمع الآثار والأخبار.

كيف وقد كشف المؤلف عن المنهج وأقام المدرج، ليس فحسب في تصنيف وتقسيم الفصول والأبواب، بل حتى في التدليل على مصادر ومراجع الباب؟

وبعد، فإنه لمن دواعي الفخر لطنجة أن يُطرّز آل الصديق رحمهم الله بمداد الفخر صفحات المجد في تاريخ المغرب وفضل العلم وأهله به، في بادرة الكتابة التاريخية على سَنن المحدثين في الإلمام بفضائل البلدان والأمصار، واكتناه ما استبطنته من الحقائق والأسرار، ولعل ما ستر من تراثهم في هذا الباب من العجب العجاب واللباب المستطاب، وقد اطلعت على ما صنفه شقيق المؤلف الحافظ أحمد رحمه الله في هذا الباب، وضمّنه كتابه: «مجمع فضلاء البشر بأعيان القرن الثالث عشر» وما زال مخطوطا، فألفيتُه قد احْتَوَشَ من تراجم وأحوال الأمم وأهليها بما تنحلّ له الحبوة عجبا، وتستسيغ له الأفئدة طربا، وقد صدق من وصف أمثالهم فقال:

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأنديـــة ينتابها القول والفعل
وإن جئتَ ألفيتَ حول بيــوتهم مقامات يشفى بأحـلامها الجهل

والحمد لله رب العالمين.

وكتبه د. عبد الله عبد المومن كان الله له بثغر طنجة الميمون
ضحوة الثلاثاء 10 رجب 1434 هـ الموافق 21 ماي 2013م

تصدير

الحمد لله وحده. والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله الطاهرين، والرضا عن الصحابة المنتجبين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

وبعد: فقد شاعت بين الناس في فترةٍ تاريخيةٍ سابقةٍ مقولة فيها إجحاف وبخسٌ لحقٍّ وفضلِ مدينة طنجة وأهلها. زعم فيها مُروِّجُها أنها منذ كانت وهي خالية من الفضل وأهله، ولم يشتهر فيها مِن أهل العلم والأدب والسياسة ما يدفع محبها للاعتزاز بالانتساب إليها، والاستيطان بها، وأنها مهملة الذكر في كتب التاريخ، مطوية بالإهمال والنسيان، فلم تُذكر فيها بمدحٍ ولا سبْقِ فضْلٍ، ولم يُعرف عن أهلها جهادٌ ولا نضالٌ، ولم يقطنها عبر تاريخها الطويل مَن يُعرف بالعلم والفكر ويشتهر بالأدبِ والسياسة، حتى تُذكر باِسمه وتُقرن بترجمته، فتسير مع ذكرها في الآفاق شرقاً وغرباً.

فانبَرَى لردِّ هذه الفِرية التي أريدَ بها شين هذه المدينة العريقة، والدفاع عن تاريخها، وتاريخ علمائها وأدبائها، ونفْضِ حجابِ الإهمال الذي دفَنَ مجدَها، ومحَا وجودَها وفضلَها في التاريخ، أحدُ أبنائها المناضلين الأوفياء وهو والدي: العلّامة الكبير والمحدِّث الناقد الشهير، صاحب التصانيف والمؤلفات الكثيرة في شتَّى العلوم وفنونها، سيدي ومولاي عبد العزيز بن محمد بن الصدِّيق الحَسَني الطَّنجي - (ت:1418هـ / 1997م)- رحمه الله ورضي عنه، وذلك في كتابه القيِّم: «سِراج الدُّلجة في فضل طنجة». والذي نضعه بين يدي القارىء الكريم في حلَّته الجديدة، مظهرين به إحدى المَكْرمات العِلمية العظيمة التي قلَّد بها هذا العالِمُ النِّحريرُ أبناءَ هذه المدينة، والمتمثلة في إظهار فضل مدينتهم وسُموِّها على كثير مِنَ المُدن والبلدان، وإبراز مجْدِ تاريخها العريق في الجهاد ونشْرِ الدِّين والعِلم والأدب؛ فَحلَّى بِهذه المَكرمة التاريخية مثقَّفِيها وأدباءها وفقهاءها وعلماءها، ممَّن لم يُسعفهم الحظُّ في السبق لهذا الموضوع البِكر، ولِمن لم يطاوع قلمُ التأليف بنانهم في نشْرِ ما حبا به الله تعالى هذه المدينة من الخصائص والمزايا التي أهَّلتها عبر تاريخها القديم كي يَكون اِسمها هو الذي يطلق على المغرب كلِّه، وبها يشتهر ويُعرف، كما عُرف بعد ذلك بمراكش. فهذا الكتاب ديْنٌ للمؤلِّف في أعناق أهل طنجة، ينتظر الوفاء والسَّداد.

ولقد نحا كثير من العلماء والمؤرخين الذين ألَّفوا في فضل مدنهم وبلدانهم منحىً غير محمود في إظهار فضل ومزية مُدنِهم، حيث

يفتـــتحون كـتـبهم ويصدرونها بأحاديث مكذوبةٍ موضوعةٍ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تتحدث عن فضل مدنهم بأسمائها، أو أحيائها أومساجدها.. إلخ، كما هو شأن المؤرخين والعلماء الذين صنفـوا في تاريخ بعض المدن المغربية كالرباط وشالة، وسبـتة، وفاس، .. إلخ. وما جرَّهم لهذا المنحَى الشاذِّ الغـريب -الممقوت شرعاً - إلا التعصُّب الأعمى للمـوطن، ولكونهم ليسوا من أهل التحقيق والتمكن، ومَن كان منهم كذلك غلب عليه التعصب لبلده فأرداه في هاوية المدح وإثبات الفضل بالكذب والزور.

لكن مع كتاب «سراج الدلجة في فضل طنجة» نرى أن المؤلف رحمه الله تعالى أبرز ما لهذه المدينة من المزية والفضل دون التمحل والتكلف واِتّـباع منحَى الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل أظهر شهرتها وفضلها القديم بما يُعرف به الفضلُ للمدن والأماكن، وبما تُـنال به الشهرة في هذا المضمار، كما هو الحال في الحواضر والبلدان الأخرى في شرق الأرض وغربها، بِاشتهار أهل العلم والفكر والأدب من أبنائها، وذِكرها في كـتب التاريخ والتراجم والفهارس والبرامج حين يُـذْكرون بعلومهم ومصنفاتهم، ومذاهبهم، إلى غير هذا.. اللهم ما ورد من نصوص قرآنية ونـبوية في شأن فضل مكة المكرمة، ومدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبيتِ المقدس. وما صحَّ لنا من أحاديث وردت في فضل الشام، أو غيره.

وهذا فضلٌ آخر زيَّن به المؤلف رحمه الله تعالى تاريخ مدينة طنجة، فلم يجعل فضلها مبنياً على الظن والاحتمال التاريخي، ولا على الكذب الممقوت كما هو الحال في بعض كتب تاريخ مدينة فاس، والرباط، وسبتة.. إلخ. فمنهجه في هذا التأليف -رغم صغر حجمه- يختلف عن منهج الكاتبين في تاريخ المدن المغربية خاصةً، وهذا يدل على تحقيقه وتمكُّـنه واطلاعه بخلاف ما نقرأه في أخبار المدن والحواضر الأخرى. هذه الإشارة تكفي في بيان منهج المؤلف، لأنه لو ذكرنا بعض الأمثـلة المبينة للمنهج الذي نحاه المؤلف رحمه الله تعالى في إثبات فضل مدينة طنجة، وقارنا ذلك مثلا بمن ألف في أخبار شالة بالرباط، أو فاس، لرأينا الفرق واضحاً، ولوجدنا التكلف عند الآخرين مفرطاً لحد رواية المكذوبات ونَسبِها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. والمؤلف يزيد كتابته عن طنجة فضلاً بربئها عن هذه التكلفات والمكذوبات.

وقد وقـفتُ على ما ذكره الحُـمَـيدي في كتابه «جـذوة المقـتـبس في ذكـر ولاة الأنـدلس» (ص:7-8) عند الكلام على فضل المغرب، وما ورد فيه، قال: ((وقد جاء في فضل المغرب غيرُ حديثٍ، مِن ذلك ما أخرجه مسلِمٌ في الصحيح.. عن سعْـدِ بنِ أبي وَقّـاصٍ أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يزال أهلُ المغرب ظاهرين على الحقِّ حتى تـقوم الساعة». وهذا النصُّ وإنْ كان عامًّا لما يقع عليه، فللأندلس منه حظٌّ وافر لدخولها في العموم، ومزية لتحقُّـقِـها بالغرب وانتـهاء آخِـرِ المعمور فيه.. وقد بشَّـر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أهلَ تلك البلاد في هذا الحديث بظهور الإسلام فيها وثباته إلى أنْ تَــقوم الساعة بها ...)) إلى آخر مقاله.

فالحُـميدي تعلَّـق بلفظ « المغرب « المذكور في الحديث ليخلعه على الأندلس التي ألَّف كتابه «الجذوة» في تاريخها وفي تراجم أهل العلم والنباهة من أبنائها، لأنها وافـقَـتْ بموقعها الجغرافي جهة الغرب، حيث قال: ((لتحقـقها بالغرب وانتهاء آخر المعمور فيه)).

ولكن كما يعلم كلُّ مسلمٍ فإنه وقع بعد ذلك من تاريخها المأساوي وخروج المسلمين منها ما نَـفَى تحقُّـقَها مِنَ الفضل الذي ورد في الحديث الشريف لأهل المغرب الظاهرين على الحق، فأمست دار كفرٍ. والأمر لله.

وقد علَّـق على كلام الحميدي هذا، والدي رحمه الله صاحب «سراج الدلجة» حيث كتب على طرة نسخة «الجذوة» الموجودة بمكـتبته، ما يلي: ((ولكن حدث ما يدلُّ على أن الأندلس غير داخلة في هذا الحديث، فما وقع بعد عهد المؤلف -يعني الحميدي المتوفى سنة 488 هـ- مِن اندثار الإسلام منها، واستيلاء الكفار عليها، وصارت بسبب ذلك دار كفرٍ بعد أن كانت دار إسلامٍ. وهذا ينطبق تماماً على مغربنا لا على الأندلس. فإِنَّ الأندلس انقرض منه الإسلام منذ قرون، وأصبح دار كفر ونصرانية. أَمّا المغرب فلا زال بحمد الله تعالى دار إسلامٍ وإيمانٍ، ولا زالت فيه طائفة تقول الحقَّ وتدعو إلى السُّـنَّـة رغم ما يعارضها من عوائق وموانع.. وبهذا يظهر أَنَّ الحديث واردٌ في المغرب الأقـصىَ)) اهـ كلامه.

وهكذا ساق المؤلف رحمه الله الفضل لأهل المغرب بدون تمحلٍ ولا تكلفٍ مسرفٍ، فأورد فضلاً ثابتاً لبلاد المغرب، غـفـل عنه الباحثون في هذا الشأن.

إنَّ مدينة طنجة كانت قاعدة بلاد المغرب وأمَّ مدنه، إذ لم يكن بالمغرب مدينة أعظم ولا أقدم منها لهذا كان يعرف بها، فكان يقال: بلاد طنجة، ويقصد بذلك المغرب. ولم أقف على من أشار في القديم إلى وجود كتابة عن تاريخها غير ما ذكره عليُّ بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي صاحب كتاب «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس» حيث قال فيه (ص 21):

((وهي يومئذ -يعني طنجة- قاعدة بلاد المغرب، وأمُّ مدنه، إذ لم يكن بالمغرب مدينةٌ أعظم ولا أقدم منها، وقد ذكرنا تاريخها ومن بناها في كتابنا الكبير «أزهار البستان في أخبار الزمان».)).

ومدينة طنجة كانت مشهورة في القديـم، ممدوحة عند الكثيرين من المؤرخين والأدباء والشعراء، وقد ذكر المؤرخ أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بـاِبنِ القُـوطِـيَّـةِ القرطبيِّ -وهو من رجالات القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد، والذي كان جده في الأصل مولىً للخليفة عمر بن عبد العزيز- في «تاريخ اِفـتـتاح الأندلسِ» مدينة طنجة في كثير من المواضع، عند ذكره للأحداث التي يؤرخ لها، فأشار في بعضها إلى أنها كانت تُعرف باِسْمِ الخضراء. وأكَّـد هذا الاسم لها المستشرق الإسباني خوليان رِبِـيـرا الذي ترجم كتاب «تاريخ افتتاح الأندلس» إلى الإسبانية ونشره في مدريد سنة 1926، حيث قال: وطنجة حتى اليوم تسمى بالمدينة الخضراء.

ثم إنَّ موضوع الكتابة عن فضل طنجة وذكرها المستفيض في كتب التاريخ والأدب والفكر، موضوع لم يَسبق والدي العلامة المحدِّث سيدي عبد العزيز بن الصدِّيق رحمه الله تعالى أحدٌ من معاصريه لِنَيل شرف الكتابة عنه وجنْي باكورة البحث فيه، فعمله في هذا الكتاب الذي بين أيدينا غير مسبوق.

وبما أن أهل المغرب قديماًلم يكونوا مهتمين بالكتابة والتأريخ لحياة العلماء والنبغاء والأدباء الذين اشتهر ذكرهم عندهم، لهذا عسر الإحاطة بهم، وضاعت تراجم عدد لا يحصَى مِن أهل العلم والفكر والنجدة، وبقي من الأسماء من خلَّده المصنفون وأهل التواريخ من بلدان أخرى. وصاحبُ «سراج الدلجة في فضل طنجة» اقتصر على ذكر الأعلام الذين توفر لديه ذكرهم عند مطالعته وقراءته القديمة لكتب التاريخ والبرامج والفهارس، وحتى كتب التفسير، ولم يراجع عند تأليفه لهذا الكتاب شيئاً مِن المصادر، لأنه ألَّفه في زمنٍ قصير جداً، وفي ظروفِ محنةٍ صعبةٍ.. ورغم ذلك، خرج هذا المؤلَّف بأبهَى وأعظم فائدة، محققاً به صاحبه القصد منه وهو دحض الافتراءات التي أُلصِقَت بطنجة وتاريخها، وإزاحة حجاب الإهمال والنسيان الذي غطَّى ذِكر أبنائها وعلمائها ودورهم الكبير في نشر الدين والعلم والفضيلة، وكيف لا؟ وهم مرابطون على ثغرٍ من أعظم الثغور، يحمون بيضة الدين وينشرون أخلاقه وتعاليمه، رغم التيارات الفكرية الأجنبية التي تأتي من العدوة الأخرى وما تحمله مِن تغريب للأخلاق والفكر والثقافة.

وأود أن أشير إلى أن هناك أسماء أعلام كبار اِستوطنوا مدينة طنجة قديماً، ونشروا فيها العلم والأدب، لم يسق المؤلف رحمه الله تعالى ذكرهم، ربما للاختصار الذي رامه، والوقت الذي زاحمه في إخراج الكتاب، لكن إشارته إلى أسماء كثير من كتب التاريخ تكون عوناً للباحثين من بعد في إخراج أسماء أولئك الأعلام وما عُـرفوا به من علم وفضل وأدب، شهروا به مدينة طنجة عند أقرانهم العلماء في الشرق والغرب.

وقد توَّج المؤلف رحمه الله تعالى صدر كتابه هذا بكلمات خالدة من نصِّ خطاب سامي لجلالة الملك محمد الخامس طيِّب الله ثراه، مدحَ بهذه الكلمات الذهبية الرنانة مدينة طنجة أثناء زيارته التاريخية لها في أبريل من سنة 1947م. وقد عدَّد جلالة الملك محمد الخامس بكلماته المولوية الخالدة فضائل ومحاسن مدينة طنجة، وقال إِنَّ المغرب كـلَّه يفتخر بتاريخها ويزدهي ببهجتها. واِختيار المؤلف رحمه الله تعالى لتصدير كتابه بهذه الكلمات المولوية إشارةٌ منه إلى أنَّ عناية ملوك المغرب بهذه المدينة متـتاليةٌ متعاقبة، وزيارة جلالة الملك محمد الخامس لربوعها، وإحياء سنَّـة جـدِّه المقدس المولى الحسن في زيارتها والقيام بشؤونها وإصلاح أحوالها، خير مثال على ذلك. وهذا وحده يكفي في الفخر وإظهار الميزة والفضل، حيث تكون مدينة طنجة محل عـناية الملوك والسلاطين العِظام.

وليس الأمر ببعـيدٍ عن وقتنا الحاضر، فها هو جلالة الملك محمد السادس أعـزَّه الله ونصره، أحيَى سيرة جدَّيْـه: المغفور لهما جلالة الملك

محمد الخامس، وجدِّه الأكبر المولى الحسن الأول، وربط سيرته بسيرة سلـفه، حيث قام نصره الله بإتحاف هذه المدينة وتشريفها بزياراتٍ متعددةٍ، مصحوبة بمزيد من العناية السامية منه لها، حتى تـكون بذلك -كما جاء في خطاب جدِّه جلالة محمد الخامس- مِنَ المغرب بمنزلة التاج مِن المَـفرق، وليزيل عن عين غفلتها الوسن.

وقد طبع «سراج الدلجة في فضل طنجة» الطبعة الأولى سنة 1956م، على نفقة بعض أبناء هذه المدينة ووُزِّع مجاناً رغبةً في نشر فضل ومكانة هذه المدينة العريقة. والآن تصدر الطبعة الثانية بعد أكثر من نصف قرن، رغبة في إجابة طلب كثير من أهالي المدينة والباحثين المتشوفين لتاريخ هذه المدينة، ولِما كتبه العلامة سيدي عبد العزيز بن الصديق رحمه الله تعالى في فضلها، وأحيَى به مجـدَها الغابر.

وأعتذر للقارىء الكريم على الإطالة، وأتركه صحبة هذا الكتاب المفيد عن تاريخ مختصر لمدينة طنجة، وعن فضلها الذي فاق سائر المدن والحواضر المغربية.

وكـتبه: عبد المنعم بن عبد العزيز بن الصديق
يوم الخميس 29 جمادى الثانية عام 1434هـ
الموافق 9 ماي 2013م، بثغـر طنجة المحروسة.

ترجمة الشيخ العلامة المحدّث الناقد المفيد
السيد عبد العزيز بن محمد بن الصديق
رضي الله عنه

اسمه ونسبه:

هو العلامة المحدِّث السيد عبدُ العزيز بنُ محمدِ بنِ الصِّدِّيق الحَسَني، ينتهي نَسَبه إلى مولانا إدريس بنِ عبدِ الله الكامل بنِ الحَسَنِ المُثَنَّى بنِ الحَسَنِ السِّبْطِ عليه السلام. والده هو الإمام العارف الكبير والقطب الشهير سيدي محمد بن الصديق، ووالدته حفيدة الإمام العلامة الولي الشهير سيدي أحمدَ بنِ عَجِيبة الحَسَني المتوفى سنة 1224هـ

ولادته ونشأته:

ولد السيد عبد العزيز في طنجة، في شهر جمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف. توفيت والدته وهو في الثانية أو الثالثة من عمره. فتعاهده والده بعناية فائقة، وبعد قراءته للقرآن الكريم بزاوية والده

رضي الله عنه على الفقيه السيد محمد الأندلوسي، اشتغل بطلب العلم على والده الذي كان مهتماً به غاية الاهتمام، حيث يقول رحمه الله تعالى في ترجمته «تعريف المؤتسي بأحوال نفسي» والتي كتبها لنفسه:

((وقد كان والدي رضي الله عنه يتعاهدني في أثناء ذلك بالنصح والإرشادات التي كانت تضيء أمامي الطريق، وتكشف لي عن سبيل السير فيما ينفعني في ديني، ويقـرب لي طريق العلم .. فلم يكن يمر عليّ يومٌ بدون أنْ أذاكره وأسأله عن مسائل في شتى العلوم والفنون المختلفة. فكان يعطيني رحمه الله ورضي عنه في كل موضوع أسأله عنه، قواعد عامة تكفيني وتغنيني عن كثير من البحث والمطالعة، فنفعني ذلك جداً. وكان رحمه الله يسرّ بذلك ويحثني على الاستزادة من البحث والمعرفة..)).

رحلته ودراسته ومشيخته:

وبعد وفاة والده الإمام سيدي محمد بن الصديق سنة 1354هـ سافر إلى القاهرة بمعية شقيقه العلامة الأصولي الفذ السيد عبد الحي بن الصديق وذلك سنة 1355هـ؛ فأخذ عن كبار العلماء كالشيخ عبد المعطي الشرشيمي وهو أحد علماء الهيئة بالأزهر، والشيخ محمد عـزت، والشيخ محمود إمام المنصوري، والشيخ عوض الصعيدي، والشيخ عبد السلام غنيم الدمياطي الضرير، الذي كان يقرأ عليه في داره إذ لزمه مدة أربع سنوات، حيث كان معجباً بدروسه، قال عنه في «تعريف المؤتسي»:

((بدأت القراءة عليه قبل ذهابي إلى الأزهر. وكان يعجبني تقريره وشرحه لأنه كان ضريراً وكان يملي شرح المتن الذي أقرأه بما يظهر له. ثم أقرأ عليه الشرح فآخذ منه معنى المتن إجمالا، ثم يفصل ويبين مع قراءة الشرح، ولم أنتفع بأحد كما انتفعت به)).

وقد قرأ على الشيخ عبد السلام غنيم: «متن أبي شجاع» بشرح تقي الدين الحصني، و«ألفية ابن مالكٍ» بشرح ابن عقيل، و«الجوهرة» بشرح اللقاني.

كما أخذ عن شيوخ آخرين أدركوا كبار شيوخ الأزهر. ودرس على شقيقه العلامة المحدث السيد عبد الله بن الصديق بالرواق العباسي بالأزهر «جمع الجوامع» بشرح الجلال المحلي، كما قرأ عليه أبواباً من ألفية العراقي في المصطلح بشرح المصنف. واستفاد خاصة من شقيقه الأكبر الإمام الحافظ السيد أحمد بن الصديق في علوم شتى، وخاصة علم الحديث الذي كان يتقنه إتقاناً عجيباً وله في صناعته وفنونه اليد الطولى والدراية التامة.

وقد ترجم له في ترجمته « تعريف المؤتسي « ترجمة موسعة عندما ترجم لشيوخه، وهو الذي لقَّـبه بجمال الدين، وكنَّـاه بأبي اليسر. وأجازه بخط يده قائلا:

((حمداً لمن خص أصحاب الحديث الحافظين لدينه القويم بعلو الإسناد، ورفع قدرهم في القديم والحديث وخصوصاً يوم المعاد، وجعلهم خلفاء رسوله فكانوا ملجأً لكافة العباد، وصلاة كاملة شاملة لفضائل الصلوات بجميع الأعداد، وسلاماً يفوق كل سلام متصلا مسلسلا إلى يوم

التناد، على منبع الكمالات وبحر فيوضات الإمداد سيدنا وسندنا محمد أفصح من نطق بالضاد، وعلى آله وأصحابه الذين بلَّـغوا عنه ما سمعوا وبلـَغوا الغاية في الإرشاد. أما بعد: فلما كان الإسناد قدره جليل وفضله أظهر من أن يقام عليه دليل، إذ مثل مَن يطلب الحديث بلا إسنادٍ كمثل حاطب ليل، ولذا ضرب العلماء الأجلة آباط الإبل جيلا بعد جيلٍ. وكان شقيقي العلامة المحدث الراوية المؤلف البحاثة النفاعة سيدي عبد العزيز ممن رمى في هذا الفن بالسهم المصيب، فنال منه أعظم حظٍّ وأوفر نصيبٍ. وطلب مني أن أجيز له رواية ما قرأته أو سمعته أو أجِـزْتُ به من كتب السنة المشرفة بعدما سمع مني صحيح البخاري بكامله مرةً، وبعضه مرةً. وسمع مني أيضاً النصف من صحيح مسلم، وأوائل العجلوني، وغيرها من كتب السنة والعلوم والفوائد المتعلقة بها؛ فأجبته إلى ما سأل وقلتُ: إني أجزت له أن يروي عني سائر مروياتي بالقراءة والسماع والإجازة، كما أجاز لي ذلك أشياخي البالغ عددهم فوق المائة. وهم مذكورون بأسانيدهم ورواياتهم عن شيوخهم في مشيختي المتضمنة نصوص إجازاتهم، مما يجب عليه إذا أحب اتصال الأسانيد أن ينسخ منها أصلا لنفسه.

كما أن بعض أسانيدي مذكور في بعض مؤلفاتي كإرشاد المربعين، وفتح الملك العلي، وغيرهما مما أجزته بجميعه أيضاً إجازة عامة مطلقة. وأجزت له أن يجيز عني لمن يريد الرواية عني مباشرة رغبة في علو الإسناد، وذلك ما دمت في قيد الحياة.

وأوصيه بالعمل بالكتاب والسنة، والوقوف معهما أصولا وفروعاً، ونبذ التقليد، وعدم الالتفات إليه وإلى أهله قديماً وحديثاً. وأسأله أن لا ينساني من صالح دعواته، وأن يكون من أهل الإنصاف في العلم والاعتراف بالحق لأهله.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. وحرره بقلمه الفقير أحمد بن الصديق في ثالث وعشري ربيع الثاني من سنة تسع وستين وثلاثمائة وألف.هـ».

وقد وصف الحافظ السيد أحمد بن الصديق شقيقه السيد عبد العزيز بالمحدث العلامة النابغة في غير موضع، وذكره في خطبة كتابه «العقد الثمين في الكلام على حديث: إن الله يبغض الحبر السمين» بقوله بعد كلام: ((لما شرع شقيقي المحدث النابغة السيد عبد العزيز في كتابة جزئه الذي سماه: «قطع الوتين ممن يحب السِّمَن ويغبط السمين».. إلخ)).

وذكر السيد عبد العزيز في ترجمته لنفسه «تعريف المؤتسي» أنه استفاد من مؤلفات شقيقه الحافظ السيد أحمد، وانتفع بها كثيراً. قال عنها:

((وبها فهمتُ علم الحديث وفتحت لي أبواب مسائله العويصة. على أن كتبه كلها كانت لي كالمفتاح لفهم هذا العلم فتوصلت بسببها إلى إتقان كثير من مسائل علم الحديث الشريف، ووقفت بواسطتها على نكت وفوائد يعز وجودها في غيرها ولا يمكن الحصول عليها إلا بعد مطالعة كثيرة وبحث عظيم)) اهـ

آثاره وثناء العلماء عليه:

وقد خط السيد عبد العزيز رحمه الله بقلمه كتباً وأجزاء ورسائل عديدة في الحديث، والفقه، والتصوف، والتاريخ، ومقالات كثيرة. وقد أثنى علماء عصره على مؤلفاته ومقالاته، وأعجبوا بها، وشهدوا له فيها بالتمكن والإتقان، وفي مقدمتهم شيوخه. وقد ذكر في ترجمته بعض من أثنى على مؤلفاته من علماء عصره، فقال رحمه الله:

((وقد قرأ تآليفي كثير من الناس وأثنوا عليها ومدحوها وبالغوا في الإطراء. وفي مقدمتهم وطليعتهم شقيقي الحافظ المجتهد أبو الفيض شهاب الدين أحمد، أمتع الله به، فقد اطلع على أغلب مؤلفاتي وأثنى عليها وقرّظ بعضها بتقريظ حسن، وإليك ما قرّظ به كتابي «الباحث عن علل الطعن في الحارث»:

قال بعد الديباجة: أما بعد، فإن من قرأ هذا الجزء المسمى بالباحث لشقيقنا العلامة المحدث الواعية الناقد البصير بالعلوم الأثرية والروائية جمال الدين أبي اليسر عبد العزيز بن محمد بن االصديق، أبقاه الله وأدام توفيقه، وكان من أهل الفضل والإنصاف والتذوق لطعم التحقيق في العلوم بلا تعصب ولا اعتساف، علم أنه من العدول الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين». ومن الطائفة المنصورة الوارد فيهم بالطريق المتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك».

بل يعلم أنه من آيات الله تعالى التي قال عنها في كتابه العزيز: ﴿ما نـنسخ من آية أو نـنـسها نات بخـير مـنها أو مثلها﴾. فلئن كان الله قد نسخ آياته الباهرة في هذه الأمة من حفاظ الحديث ونقاد رجاله الذابين عنه في صدر هذه الأمة، فهو سبحانه بفضله وجوده لم يقطع عن هذه الأمة آياته في تلك الباب، بل أظهر منها في آخرها مثل ما أظهر في أولها، وفي كل قرن من أمته صلى الله عليه وآله وسلم سابقون إلى الخيرات، ولولا وجود تعبٍ ملمٍ بنا في هذه اللحظة لأملينا في مدح هذا الجزء وتأييده ما يفوق حجمه أو يماثله...)).

كما كتب له في رسائل عديدة يثني على ما يكتبه، قال في «تعريف المؤتسي» بعد كلام:

((أما استدراكك على اللآلـيء المصنوعة فيدل على طول باعٍ وشدة عناية بالحديث، زادك الله حرصاً وعناية به، آمين. وكتب في ضمن جواب له عن بعض المسائل أثناء كلامٍ ما نصه: التواتر الذي يكفر منكره هو التواتر الضروري الذي يكون مجبولا على التصديق به كل أحدٍ بخلاف النظري الذي لا يحصل إلا للبزَّل في الحديث كسيدي عبد العزيز زاده الله حرصاً وعناية بالحديث ومعرفة طرقه ورجاله ..)).

كما مدح شقيقُه وشيخه العلامة المحدث السيد عبد الله بن الصديق مؤلفاته وأثنى عليها، قال في «تعريف المؤتسي»:

«ولما اطلع الشقيق أبو المجد السيد عبد الله على كتابي «الباحث عن علل الطعن في الحارث»، كتب إليَّ من مصر يقول: إنه كتاب عجيب سلكتَ فيه مسلك الاجتهاد والنقد في التجريح، وهو حقيق بالطبع.

وكذلك أثنى على كتابي في الرد على النابلسي وأعجبه وقال: إنه من أحسن ما كتبتَ. وأثنى أيضاً على كتابي «قطع الوتين» وقال بعد وقوفه عليه: إنه غريب في بابه مفيد..)).

وللسيد عبد العزيز رحمه الله مقالات وأبحاث كثيرة نشرها في الصحف والمجلات، بدأها بمجلة «الإسلام» عندما كان يدرس بالقاهرة، إلى جريدة «الخضراء الجديدة» التي كانت تصدر بمسقط رأسه طنجة. فقد كتب فيهما وفي غيرهما أبحاثاً قيمة نالت إعجاب قارئيها من العلماء.

وكان آخر ما كتب على صفحات جريدة «الخضراء الجديدة» مقالات عن الحياة الزوجية والعلاقة الجنسية بين الزوجين، فجمعت تلك المقالات بعد وفاته رحمه الله في كتاب «ما يجوز وما لا يجوز». تصدى فيها رحمه الله بشجاعة علمية وأدبية نادرة إلى موضوع الحياة الجنسية بين الزوجين، فأتى فيه بالعجب. وقد طبع مرتين وترجم للغات مختلفة.

وقد ترك السيد عبد العزيز مؤلفات كثيرة، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- تسهيل المدرج إلى المدرج
- التأنيس بشرح منظومة الذهبي في أهل التدليس
- بلوغ الأماني من موضوعات الصغاني
- البغية في ترتيب أحاديث الحلية
- إتحاف ذوي الفضائل المشتهرة بما وقع من الزيادات من نظم المتناثر على الأزهار المتناثرة.
- مفاتيح الذهبان لترتيب أحاديث تاريخ أصبهان.

- التعريف بجهل من أنكر العمل بالحديث الضعيف
- القول المأثور بجواز إمامة المرأة بربات الخدور
- إتحاف ذوي الهمم العالية بشرح متن العشماوية
- الباحث عن علل الطعن في الحارث
- التحذير مما ذكره النابلسي في التعبير
- الوقاية المانعة من وسوسة ابن العربي في تفسير قوله تعالى: ﴿خافضة رافعة﴾.
- إثبات المزية بإبطال كلام الذهبي في حديث: «مَن عادى لي وليًّا».
- الإنارة بما ورد في تحريك المصلي إصبعه عند الإشارة
- التحفة العزيزية في الحديث المسلسل بالأولية
- الإفادة بطرق حديث: النظر إلى علي عبادة.
- القول الأسد في إبطال حديث: رأيت ربي في صورة شاب أمرد
- التعطف بتخريج أحاديث التعرف
- رفع العلم بتخريج أحاديث إيقاظ الهمم في شرح الحكم
- جزء في بيان حال حديث: أحبب حبيبك هوناً ما.
- تصحيح البنية بما ورد في تخليل اللحية
- قطع الوتين ممن يحب السِّمَن ويغبط السمين
- جلاء الدامس عن حديث: لا تردُّ يد لامِسٍ
- الجواهر المرصوعة في ترتيب أحاديث اللآلي الصنوعة
- حسن السمعة بإبطال اشتراط العدد والمكان الخاص لصلاة الجمعة
- الجامع المصنف لما في الميزان من حديث الراوي المضعَّف. في ثلاثة

مجلدات.

- وثبة الظافر لبيان حال حديث: أترعون عن ذكر الفاجر
- المشير إلى ما فات المغير على الأحاديث الموضوعة في الجامع الصغير.
- تحذير الأغبياء من مذهب النشوء والارتقاء
- تنبيه الغبي إلى طهارة المني
- إحياء الموات بحكم القراءة على الأموات
- أزهار الكمامة في صحة حديث الغمامة
- ترتيب أحاديث الزهد للإمام أحمد
- المطرب بأدلة استحباب الركعتين قبل المغرب
- جني الباكورة في طرق حديث: لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلبٌ ولا صورة.
- دوران الأرض عند علماء المسلمين
- رفع الضرر عمن يقول بالإمكان الوصول إلى القمر
- الأنوار القدسية في شرح الوصية الصديقية
- السفينة. في مجلدين ضخمين.
- السوانح. في مجلد ضخم.
- دفع الوصب على إمامة العزب
- تخريج أحاديث البعث لابن أبي داود
- هداية المكتفي في تخريج أحاديث النسفي. لم يتمه
- الأجوبة ذات الشأن عن الأسئلة الواردة من مرشان
- حكم تحديد النسل

- شد الوطأة عمن أجاز مصافحة المرأة
- الأربعين العزيزية فيما أخبر به النبي صلوات الله عليه من أحوال هذا الوقت.
- حكم الإقامة ببلاد الكفار وبيان وجوبها في بعض الأحيان.
- تنزيه الرسول عن افتراء الغبي الجهول
- تعريف المؤتسي بأحوال نفسي
- محاضرة النشوان في الجواب عن سؤال عالم تطوان
- نظم اللآل فيما أخذه الشمس ابن طولون من كتب الجلال
- تذكرة الأحاديث الموضوعة والتي لا أصل لها.
- شرح نونية الششتري
- شرح مقطعة: بدأت بذكر الحبيب. للششتري
- حكم إمامة المرأة بالنسوة.
- الأربعون في ذم البخل والبخلاء
- المنتقى من تاريخ واسط لبحشل.

إلى غير هذا من المؤلفات والرسائل، وهذه الكتب المذكورة منها ما طبع ومنها ما لا يزال مخطوطاً.

وقد تكلم رحمه الله تعالى في ترجمته «تعريف المؤتسي» عن مذهبه في الاعتقاد، فقال: ((ومذهبي في الاعتقاد هو مذهب السلف السالم من الشكوك والأوهام، ومن القول في ذات الله وصفاته بالظن وضروب من الآراء والتخمينات، كما هو مذهب المتأخرين الذين أدخلوا على الآيات والأحاديث الواردة في صفات الله تعالى تأويلات يأباها المؤمن الصادق،

ويمجها طبع المسلم لأنها كلها ضلال من غير شك، ورجم بالغيب، وحكم على الله وصفاته بالرأي المحض، وتحريف بل تكذيب لله ورسوله بالمرة، نعوذ بالله من كل سوء. بل أعتقد أن الله سبحانه وتعالى واحد لا شريك له، وأنه منزه عن كل ما يماثل الحوادث، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. وأومن بما أخبر في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم من صفاته من غير تأويل ولا تبديل ولا تحريف، مع تنزيهه سبحانه وتعالى عن التجسيم والتشبيه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)).

وعن مذهبه في الفروع، فيقول: ((وأما في الفروع فلستُ بحمد الله مقيداً فيها بمذهب من المذاهب. بل مذهبي في ذلك ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مِن غير نظر إلى موافق أو مخالف...)).

والسيد عبد العزيز عالِم صوفيٌّ نشأ في بيت صوفي وأخذ طريق القوم عن والده رضي الله عنه، ويعجبه من كتب التصوف كما ذكر في ترجمته، ما كتبه أصحاب الأذواق مثل محيي الدين ابن عربي رضي الله عنه، وأما التصوف الأخلاقي فليس في مرتبة الإقبال عليه عنده كالسابق. فقد ذكر أنه قرأ من كتب القوم أهل الأذواق خاصة الشيء الكثير.

وأما خطبه فكانت في غاية البيان والبلاغة، والجهر بالحق، لا يداري ولا يماري أحداً، وما زال أهالي مدينة طنجة مسقط رأسه يذكرون إعجابهم بخطبه، وثناءهم على شجاعته الكبيرة في تناول الموضوعات الخطيرة والجهر بالحق فيها.

عاش رحمه الله تعالى مقبلا على الله تعالى وازداد إقبالا عليه في العقود الأخيرة من عمره، يكثر من ذكر الله، وقيام الليل لا يفتر عنه أبداً،

ويحضر مجالس الذكر، ويقابل ذوي الحوائج فيساعدهم كلًّا على قدر حاجته، ويشفع للمحتاجين عند المسؤولين والوجهاء.

وكانت وفود السائلين، وطلبة العلم، والشباب المسترشدين، تقصد منزله كل يوم بأعداد كثيرة، فيقابل الجميع بصدر رحب وابتسامة لا تفارق وجهه أبداً. فحظي بمكانة سامية في أفئدة الناس وأحبوه محبة عظيمة خاصة، فلا يذكرونه في مجالسهم إلا بالتعظيم والتوقير مع الثناء والمدح والإطراء إلى يومنا هذا.

وفاته رحمه الله:

توفي رحمه الله تعالى عصر يوم الجمعة 6 رجب 1417هـ الموافق 7 نونبر 1997م، وخرج لوداعه الأخير حشودٌ لا تقدر من المحبين والمريدين **والمعجبين بفكره وشجاعته، حجُّوا من كل مدينة وقرية، حيث لم تعرف مدينة طنجة جنازة في هيبتها وجلالتها وبكثرة المشيعين، كجنازته رحمه الله تعالى وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وقد صلّى عليه نجله السيد عبد المنعم وكبَّر عليه سبعاً، في المسجد الأعظم بطنجة.**

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حقَّ حمده، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه.

وبعد:

فهذا كتابٌ سمَّيتُه «سِراج الدُّلْجة في فضل طنجة»، فَنَّدتُ فيه بالحُجة والبرهان على سبيل الإيجاز قولَ مَنْ زعم أنَّ مدينة طنجة حرسها الله تعالى لم يَجْرِ ذِكرها في كتب التاريخ بما يفتخر به أهلها، ويعتزُّ به مَنْ ينتسب إليها، ولم يتقدم بها مِنْ أهل الفضل والعلم والأدب مَنْ يُعتبر وبه يُفتخر؛ ومنذ كانت وهي خاليةٌ عن العلماء، دارسَةٌ مِنَ العِلم والفضلاء، ليس بها غير صيادي السمك، ورجال الحرس والجند.

وهذا كما لا يخفاكَ زعْمٌ باطِلٌ، وقولٌ لا دليل عليه، ولا يحتوي على طائِل. بل كلُّ مَنْ له خبرةٌ ودرايةٌ بالتاريخ وكُتب التراجم

يعلَم أنه مكابَرةٌ وإنكارٌ ودفْعٌ بالصدر لِما ثبتَ وملأ البِقاعَ والأسماعَ مِنْ أسماءِ أهلِ العِلم، الذين طار صيتهم في الآفاق، المنتسبين لهذه المدينة المباركة الجميلة، مما يصعب حصرُه وعَدُّه.

فقد نُسِب إليها مِن رجال الحديث، والفقه، والأدب، ما لو جُمِع في كتابٍ لجاء في مجلَّدٍ ضخمٍ للغاية، كما يظهر لِمن تَتبَّع كُتب التراجم وسبَرَ غورَ كُتب التاريخ.

ومِنَ المقرر المعلوم عند أهلِ الحديث أنَّ مَنْ دخل إلى بلدٍ، وأقام بِه مدة أربعة أعوامٍ فقد صار مِنْ أبنائه، يُعْطَى له حُكمُ الانتساب إليه، ويَجري ذِكْره بين مَنْ تَبرَّز في ذلك البلدِ مِنْ أهلِه وذَويه، ومَنْ تأصَّلَ مِنه ونشأ فيه.

وقال إمامُ أهل الأندلس أبُو محمد اِبن حَزْم رحمه الله تعالى في رسالته في فضل أهل الأندلس، بعد كلامٍ ما نصُّه: "إنَّ جميعَ المؤرخين مِنْ أئمتنا السالفين والباقين دونَ مُحاشاة أحدٍ، بل قد تَيَقنا إجماعَهم على ذلك، متفقون على أنْ يَنسبوا الرجلَ إلى مكان هِجرتِه التي اِستقر بها ولم يَرحلْ عنها رحيلَ تَرْكٍ لِسكانها إلى أنْ مات.

فإنْ ذكروا في الكوفِيِّين مِنَ الصحابة رضي الله عنهم، صَدَّروا بعَلِيٍّ، واِبْنِ مَسعودٍ، وحُذَيفَةَ، رضيَ الله تعالى عنهم. وإنما سَكَن علِيٌّ الكوفة خمسة أعوامٍ وأشهراً، وقد بَقِيَ 58 عاماً وأشهراً بمكة، والمدينة شرفها الله تعالى، وكذلك أيضاً أكثرُ أعمار مَنْ ذكرنا.

وإنْ ذكروا البَصْريِّيــنَ بَــدؤوا بِــعِــمْــرانَ بنِ حُصَــيْن، وأنَــس بنِ مـالِــك، وهــشام بنِ عامِرٍ، وأَبِـي بَـكْــرَةَ، وهـؤلاء مواليـدُهُم وعامة زمَنِ أكـثرِهم وأكـثـرُ مـقامِهم بالحجاز، وتـهامة، والطائف، وجمهرة أعمارهم حـلـت هناك.

وإنْ ذكروا الشامِيِّيــن نــوَّهوا بِعُــبادَةَ بنِ الصَّـامِت، وأبِي الدَّرداء، وأبِي عُـبَـيدة بنِ الجـرَّاح، ومُعاذ، ومُعاويَة. والأمر في هــؤلاء كالأمر فيمن قَـبـلَهم. وكــذلك في المـصريِّين عَـمرُو بنُ العاصِ، وخَارِجَـة، وحُـذافَـة العَـدوي.

وفي المَكِّـيِّــن عبدُ الله بنُ عَـباس، وعبدُ الله بنُ الزُّبـيْـر، والحكـمُ في هــؤلاء كالحـكـم فـيمـن قَصَـصْـنا.

فَمَن هـاجر إلـينا مِنْ سائـر البلاد فـنحن أحقُّ به، وهـو مِـنّا بحكـم جـميع أولي الأمر مِنّـا، الـذين إجماعهم فرْضٌ اِتِّـبـاعُـه وخلافـه مُحـرَّمٌ اِقــتــرافــه. ومَنْ هاجر مِنّـا إلى غيـرنا فلا حَـظَّ لنا فيه، والمكـان الذي اِخـتاره أسعـد به. فـكما لا نــدع إسماعـيلَ بنَ الـقـاسِمِ -يعني أبـا عـلِيٍّ الـقــالي- فكـذلك لا نـنازع في محمدِ بنِ هانِئٍ ســوانا. والعـدل أولَى ما حُـرص عليه، والنَّـصف أفضل ما دُعي إليه بعـد التـفـصيل الذي ليس هذا موضعه، وعـلى ما ذكـرنا من الإنصاف تـراضَى الكـــلُّ...".

اِنـتهى كلام اِبنِ حَـزْم.

وقـد ذكـرتُـه لِـتـعلَم أنه لا اِعـتراض علـينا ولا اِنـتـقاد إذا نَسبْـنا لِطنجة محمدَ بنَ عبدِ الله بنِ الغَـازي بنِ القَـيْس، أحدَ الأئـمة في القـرن

الثـالث. رحل مِنَ الأندلس إلى الشرق، فـلـقِــيَ جماعة مِنْ أصحاب الحديث مِنْ أصحاب اِبنِ عُــيَـيْنـة وغـيرهم. وجلب إلى الأندلس عِـلماً كـثيراً، مِنَ الشِّعر، والغـريب، والعـربية، والأخبار. سكَـنَ طنجةَ، فـتـوفي بها. قال يَحيَى بنُ أَبِي صُـوفَـة: "خرج عنَّـا إلى طنجةَ، فمـات بها، وكـانت كُـتـبه عنـد أقوامٍ بطـنجةَ ماتـوا.."[1]. وستأتي ترجـمته بأوسع مِنْ هذا.

وكذلك إذا نسبْـنا إليها أبَـا الحَسَنِ عليَّ بنَ عبدِ الغنيِّ الحُصَـرِي القَـيْـرواني الأصل، المتوفَّى سنة 490 هـ وقـد كان إماماً في القِـراءات، والنحـو، شاعـراً مشهـوراً، له تآليـف منها قصيدته التي نـظم فيها قـراءة نـافِـع، وهـي مِائَــتـا بـيت وتـسعة أبـيات رواها عنه الأئـمة، ورحـلوا إليه مِنَ البـلاد البعـيدة لِسماعها منه. وذكـرها أَبُـو بَكـرٍ بنُ خَـيْـرٍ الإشْـبيـلِي رحمه الله تعالى في فهرست مَـروياتِـه وهي أوسع فـهرسة موجودة على ظهر الأرض الآن؛ فقال: "قصيدة أبِي الحَسنِ عليٍّ بنِ عبدِ الغنيِّ الفِـهْـري الحُصَري، المقـرىء، الضَّرير، رحمه الله تعالى، في قـراءة نـافِـعٍ، حدثـني بها الشيخ الإمام أبُـو داود سُـلَيمانُ بنُ يَحْـيَى بنِ سعيـدٍ المَعافِري المِصريِّ رحمه الله تعالى، قـراءة مِنِّي عليه في مـسجده بِقُــرطُبَة في المُحرَّم مِنْ سنة 539 هـ عنْ ناظِمِها أبِي الحَسَنِ الحُـصَري المذكور قـراءةً مِـنه عـليه بمدينة طنجـة حرسَها الله تعالى.."[2].

1- راجِعْ: «طبقات اللغويين والنحويين» للزبيـدي (ص:289، مطبعة الخانجي).

2- انـظر (ص:74) مِن الـفهـرست، طبْع إسبانيا. وراجِعْ «صِلَـة اِبنِ بـشكـوال» طبْع إسبانيا، و«بُغْـيَـة الـوُعَـاة» (ص:341) مطبعة السعادة.

وقد شرح قصيدتَه هذه مـرجى بنُ يونس بنِ سليمان بنِ عـمرَ الغَـافِـقِــي، المرجقي أبـو عُـمر، كان مِنْ أهل المعرفة بالقراءات، والعربية، وكان ساكـناً بطنجـة، فأخذ عن الحُـصَـري، وروَى عنه قـصيدتـه المـذكـورة وشرَحَها، توفي في حدود سنة 600هـ[1].

وقـد ذكـرنا هذا على سبيل المثال لا الحصر، لأنَّ الداخلـين إلى طنجة مِنْ أئِـمة العِـلم لا يُحصَون كـثرةً مِنْ أنـدلـسيِّيـن، وإفـريقـيِّين، ومغاربة، وغيرهم. وأما الذين دخلوا إليها ولم يمكـثوا فيها إلا قـليلا، فذلك مما لا يطمع عاقِـلٌ في حصـره وعـدِّه. ويكـفي مِنْ ذلك أنْ نَـذكـر أنَّ جيش مُوسَى بنِ نُصَـيْـرٍ كان فيه عددٌ كبيرٌ مِنَ التابعيـن وبعضُ الصحابة على قـول أنَّ المُـنْــذِرَ أو المُـنَيْـذِرَ الأسْـلَـمِي -ويـقال: الشـمالي- كان صحـابِـياً، فإنه كان معـهـم. وقد ذكـره اِبنُ يونس، وقال: "رجلٌ مِنْ أصحاب النبيِّ صلى الله عـليه وآله وسلم".

وقال البَـغَـوِي: "سكـن إفريقـية وروَى حديثَـه رشدين بنُ سعـدٍ، عَنْ حيٍّ بنِ عبدِ الله، عن أبِي عبدِ الرحمن الحُبُـلِّي، عن المنَـيْذر صاحبِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم سكن إفـريقـية، عن النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «مَنْ قـال إذا أصبَحَ: رَضِيـتُ بِاللهِ ربًّا وبالإسلامِ دِيناً وبِمحمدٍ نبِـيًّا. فأنا الزَّعِــيمُ لآخُـذنَّ بِـيَـدِه فَلأُدْخِــلَــنَّـهُ الجَــنَّــةَ»".

قال الحافظ رحمه الله تعالى في «الإصابة»: "وَصَـله الطبراني إلى رشدين بنِ سعـدٍ؛ وتابعه اِبنُ وهْـب عن حيٍّ، لكنه لم يُسَـمِّه، قال: عن

1- انْظُـر: «التَّــكْـمِلة» لابنِ الأبـَّار، و«البُـغْـية» للسيـوطي في حرف المِيم منهما.

رجلٍ مِنْ أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم. وأخرجه اِبنُ مَنْدَه. وقال اِبنُ السَّكَن: المُنَيْذِرُ الشمالي مِنْ مذحج، ويقال: مِنْ كِنْدَة، وله حديثٌ واحدٌ، مُخرجٌ حديثُه عند أهل مِصر، وأرجو أنْ لا يكون صحيحاً، وليس بالمشهور. ونقل الرشاطي عن عبدِ الملِكِ بنِ حَبِيب قال: دخل الأندلسَ مِنَ الصحابة المُنَيْذِرُ الإفريقِي. ولم يتابع عبد الملك على ذلك فإنه لم يتجاوز إفريقية" اِنتهى كلامُ الحافظ.

وقد مكث مُوسى بنُ نُصَير مع جيشه مدةً بطنجة، وهو يعدُّ العُدّة للوثوب على الأندلس. ودخلها قَبل موسَى بنِ نُصَير عُقبةُ بنُ نافع الذي وُلِد في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، على القول بأنَّ طنجة فتحها عُقبةُ بنُ نافِع قَبل موسَى بنِ نُصَير؛ فإنَّ للمؤرخين في ذلك خِلافاً. وعلى القول بدخوله إليها وافتتاحه لها عَوَّل البَكْري في «المَسالك والمَمالِك»[1].

وإذا صحَّ القولُ بوصول عُقْبة بنِ نافِع إليها فيُمكن الجزم حينئذٍ بدخول الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم إليها.

فقد كان مع عُقبةَ بنِ نافِع عند دخوله إلى إفريقية نحو مِنْ خمسة وعشرين صحابياً كما قال الواقِدي. وسواءٌ صحَّ هذا القولُ أو لم يصح، ففي دخول ذلك العدد مِنَ التابعين الذين كانوا مع مُوسَى اِبنِ نُصَير التَّابِعي إلى طنجة حرسها الله تعالى ما يكفي في شرفِها وفضلِها وإثبات المزية لها في تاريخها الإسلامي. لأنَّ أهل ذلك

1 -المسالك والممالك، (104/1) طبعة باريس.

العصر ما كانوا يحُلُّون ببلدٍ إلا وينشرون فيه علومهم، ويَبُثون في أهله تعاليم الدِّين والأخلاق الفاضلة العالية كما هو معروف عنهم. بل إنهم ما كانوا يتكلفون مَشاق الغزو إلى البلاد البعيدة عنهم، النائية مِنْ أوطانهم إلا ليَحْملوا إليها ما علِموه وحفظوه مِنَ العلوم والمعارف التي بها يتم تثبيت كلمة الإسلام في الأرض التي يغزونها لأجل أنْ تنقاد وتخضَعَ للإسلام ويدخل أهلها فيه.

بل إنَّ قُواد الجيوش وأمراء الدولة ما كانوا يصحبونهم معهم إلا لهذا الغرض، وهذا معلومٌ عند كلِّ أحدٍ ولا يحتاج إلى دليلٍ. لأن الإسلام يعتمد على الفتح الروحي، بل ذلك غَرضُه الوحيد مِنَ الغزو للبلاد، وذلك لا يكون إلا عن طريق رجال العِلْم مِنْ أهله وحَمَلة الدِّين مِنْ شيوخه وشبابه.

قال **الحُمَيْدِي** في «جذوة المقتبس» في سِياق كلامه على فتْحِ **الأندلس** بعد كلامٍ ما نَصه: " وِاستعمل -يعني مُوسَى بنُ نُصَير- على طنجة وأعْمالِها مَولاه طارقَ اِبنَ زِيادٍ البَربَريَّ، ويقال إنه مِنَ الصدف، وتَرك عنده تِسعَةَ عشر ألفاً مِنَ البَربَر بالأسلحة، **والعُدَّة الكاملة، وكانوا قد أسلَموا وحَسُن إسلامُهم. وترك مُوسَى عندهم خَلقاً يسيراً مِنَ العرب ليُعَلِّموا البَربَر القرآن وفرائض الإسلام**"[1].

1- انظر: «نَفْح الطِّيب» (124/1) مطبعة مصطفى محمد.

فهذا نصٌّ صريحٌ فيما ذكرنا، فلا يَعْلم إلا الله تعالى كم بَثَّ هؤلاء التابعون مِنْ علومٍ، ونشروا مِنْ معارفَ في بلدتنا طنجة!!؟ وكم خلَّفوا مِنْ رجالٍ وفُحولٍ مِمَّن أخذوا عنهم وشربوا مِنْ منهلهم الزُّلال!!؟ فازدهرت بهم طنجة مدةً مِنَ الزمن، وفاقت بذلك غيرَها مِنَ البلدان، حتى صارت بسبب ذلك أشهرَ مُدن المغرب في المشرق والمغرب، وصار اِسمُها يُطلَق على المغرب كلِّه كما سيأتي.

وحصل لها مِنْ بركة دخول أولئك الرجال إليها أن اِستمرَّ بها العِلْم والفضل إلى عصرنا هذا، فما خَلَت -ولله الحَمدُ- مِنْ رجالٍ لهم في الدِّينِ والعِلْم والأدبِ، القَدم الراسخ، والباع الطويل، والقدح المُعلَّى. ويدلُّك على ذلك كثرة المساجد بها، على صغرها، والزوايا التي هي في الحقيقة مدارس مِنْ مدارس العِلم، والأخلاق، والأدب. فما مِنْ زاويةٍ إلا وكانت عامرةً بأهلها الذين كان ديدانهم دراسة كُتب التصوف، وأسرار الشريعة، ومذاكرة أخبار الرجال مِنْ أهل التصوف، وقراءة سِيَرِهِم والاطِّلاع عَلى أحوالهم، إذ لم يكن للزوايا منذ أنشِئَت غرضٌ سِوى هذا. فشيوخها وأرباب طريقتِها دائماً يأمرون المريدين أنْ يكونوا في زاويتهم بين فِكرةٍ ومذاكرةٍ كما هو معلومٌ. وهذا أرقَى أنواع المدارس التي تكون مَنْهلاً للعِلم والمعرفة. ولو لم يكن في الردِّ على قولِ مَنْ زعم أنَّ طنجة لم يكنْ بها مِنْ أهل الفضل والدِّين ما يفتخر به ويتشرف بِذِكره إلا وجود هذا العدد العظيم مِنَ الزَّوايا بِها لكَفَى وشَفَى.

إذ لولا رغبة أهلها في ذلك، وحبهم في العِلم وأهله، والفضل ورجاله، لما وجد أهلُ الزوايا مجالاً لبنائها ومساعدةً على اِتخاذها. لأنَّ الشيء لا يروج في غير سوقه ولا يُقْبِل عليه إلا مَنْ يَعْرف قيمته وقدره، فهذا وحده كافٍ كما قلنا في ردِّ ذلك الزعم، وهو كما تَرى مُشاهَد محسوس لك، فإنك إذا جُلْتَ في طنجة القديمة لا تكاد تفارق زاويةً حتى تقابلك أخرى.

وأما الغائب عنك فهو ما أثبتَه التاريخ مِنْ تَردُّدِ أهل العِلم بل الأئمة الكبار إلى طنجة لزيارة أصحابهم ومعارفهم بها مِنْ أهلِ العِلْم والأدب. مما يدلُّ علَى أنها كانت دائماً زاخِرةً، عامرةً بالعِلْم والفضل، وليست خاليةً عنهما ولا دارسة منهما كما زعم الزاعم.

فهذا الإمام الجليل الذي يَفخَر به المغرب ويتطاول به على المشرق، أبُو مُحَمدِ عَبدُ الجَليلِ القَصْري صاحب كتاب «شُعَب الإيمان»، ذلك الكتاب الذي طار صيته واِعتمده علماءُ الشرق والغرب، وأكثروا النقل منه -وهو مِنْ محفوظات مكتبة والدنا رضي الله تعالى عنه-كان يتردد على طنجة لزيارة أصحابه بها مِنْ أهل العِلم مثله. قال الغبريني في «عنوان الدراية»[1]: "ولقد ذكر لي بعضُ أصحابنا عن الشيخ الجليل الفاضل أبِي مُحَمد عَبدِ الجَليلِ صاحِبِ «شُعَب الإيمان»، أنه كان إذا ورَدَ إلى طنجة لزيارة بعض أصحابِه، كأَبِي العَباسِ **الفتجيري**، وغيره، أنه لا يَبِيتُ إلا في

1- انظر «عنوان الدراية»، (ص: 112).

الجامِع، ولا يَبيتُ بمنزل أحدٍ، وأنه كان إذا دخل الجامع يضطجع، وإذا كان وقت صلاة الصبح يقوم فَيُصَلِّي.." وقد ذكر له قصةً، فراجِع الكتاب المذكور.

ويكفي في شهرة طنجة عند علماء إفريقية، والأندلس، وعَمَلهم على شدِّ الرحلة إليها، أنْ يكون القاضي بها أبَا الأصْبَغِ عِيسَى بنَ سَهْلٍ. ذلك الإمام الذي دخل اِسمه بسبب كتابه «الأحكام» إلى كلِّ قريةٍ وبلَدٍ، وسار ذِكرُه في كلِّ قُطرٍ وجِهةٍ، وطار صيته مِنْ أجله وانتشر بين أهلِ العِلْمِ جميعاً. لأنَّ كتابه هذا لا يَصل إلى يد عالِمٍ مَهْما كان قدره وهو يَعلَم أنَّ مؤلِّفَه حَيٌّ إلا ويَشدُّ الرحلة لزيارته، ويتكلف المشاقَّ للمثول بين يديه، لا سيما إذا رآه يقول في مقدمة الكتاب عن نفسه إنه يَحفظ المدونة والمستخرجة، الحفظ المتقن. فإنَّ هذا وحده كافٍ لأنْ يَطيرَ له لبُّ أكبر عالِمٍ في ذلك الوقت، ويمشي على عينيه فضلاً عن قدميه لِيرَى هذا الإمامَ المُبَرَّزَ الذي لو لم يكن له إلا كتاب «الإعلام بنوازل الأحكام» لكان كافياً في شهرته وفضله وجودة قريحته. فكيف وقد طار صيته في العدوتين، وأثنَى عليه بالعِلم والمعرفة أهلُ القطرين. فالبلد الذي يحلُّ به مثل هذا الإمام ويتولى القضاء به مدةً مِنَ الأعوام، لا شكَّ أنه يكون كعبةَ القاصدِين وملجأً أهلِ العِلم الراغبين، كما يدلُّ على أنَّ البلدَ أيضاً كان في مستوىً عِلميٍّ لا مثيلَ له.

ولما وفَـدَ إلى طـنجة أحمدُ بنُ محمدِ بنِ عـبدِ الرحمن بنِ أحمدَ بنِ مَـاسويه، المعروفُ بِابنِ الحَـدّادِ البَلَـنْسِيِّ، لَـقيَ بها القاضي أبَـا الأصْـبَغِ بنَ سَـهْـلٍ المذكور، وكانت له معه مـناظـرةٌ في مسائل مِنَ العِـلم أدَّتـه إلى عَـمَل رسالةٍ سمَّاها: «رسالةُ الامتحان لِمَن برز في عـلوم الشـريـعة والقـرآن»، خاطب بها اِبنَ سَـهْـلٍ المذكـور، وطلب منه الجوابَ على مسائلَ عـويصةٍ، تـدلُّ على قـوته في العـلم واِتِّـساعِـه[1].

ومِن اِسم هذه الرسالة يـظهر ما كان لأَبِي الأصْـبَغ مِنْ مكـانةٍ في نفـوس أهل العلم مِنْ عـصره.

ولنـتـرك هذا الآن، لـنُـقـرر حقـيقـةً واقعـيةً يظهـرُ لك منها ما كانت عـليه بـلـدتنا طـنجة مِنْ تـقـدُّمٍ واِزدهارٍ في العِـلم والأدب، وهي أنَّ طنجة قد ساعـدها على رواج سُـوق العِـلم والأدب بها، وتردُّدِ أهـلِ الفضل والحَسَبِ عليها، مـوقـعُها الجغـرافي العـظيم في مقابـلـتها لجـزيرة الأنـدلس وقُـربُها منها؛ مِما جعـلها طـريقـاً لِلعـلماء والأدباء الـداخـلِين للأنـدلس والخـارجِين منها. فـكانوا عـند مـرورهـم بها يُغَـذّون أهـلَها بعـلومِهم، ويَـبُـثـون فـيهم العِـلمَ والمعرفةَ والأدبَ. فارتـفع بذلك المقياسُ الفكـري والعِـلمي في المجتـمع الطـنجي إلى درجـةٍ عظيـمةٍ، لأنها صارت بـرزخـاً معنـوياً بيـن المغرب والأنـدلس، كـما كان زقـاقُـها المُطلَّة عـليه بـرزخاً حِسِّـيًّا بينهما. وكَـثُـر بها بسبب ذلك الشعـراءُ والأدباءُ، ويـدلُّـنا علـى هذا أنَّ المُعـتمِدَ بنَ عَـبّـاد لمّـا

1- انـظُـر: «الدِّيـباج المُـذَهَّـب» لابْنِ فَـرْحُون (ص:54) مطبعة السعادة، و«التَّـكْـمِلَـة» لابْنِ الأبّار -القِـسم الأول المطبوع بالجـزائر- (ص:29).

قـدِمَ إلى طـنجة في طـريـقِه إلى مـنْـفاه، قـابـله الحُـصَري الشاعـرُ المـذكـور سابـقاً، وقـدَّم له قـصائـدَ مـدَحَه بِها مع كـتابه: «المُـسـتحسَنُ مِنَ الأشـعار». ولـم يـكـنْ عـند المُـعْـتَـمد في ذلك الـيـوم مِما زوَّده بِه فـيما قِـيل أكـثر مِنْ سِتَّـة وثلاثيـنَ مِـثـقالاً، فطبع عليها وكـتب معها بقـطعة شِعـرٍ يَعتـذر مِنْ قِـلَّتِها.

فـلما اِتَّـصل الخـبر بشعـراء طـنجة وعَـلِموا ما صَـنَع المُعـتَـمِدُ مع الحُـصَــري، تعَـرَّضوا له بكُـلِّ طَـريقٍ، وقَـصدوه مِنْ كـلِّ فَـجٍّ عـميـقٍ كما يـقـول المُـرّاكُـشِي في «المُعْـجِـب فِي تَـلخِـيصِ أخـبار المَغْـرب»، فـقال المُـعـتَـمِدُ في ذلك[1]:

شُـعراءُ طـنـجة كلــُّهُـم والـمغـرب
ذهــبوا مِنَ الاغراب أبْعـدَ مـذهَـبِ
سألـوا العَـسيــرَ مِنَ الأسِــيرِ وإنــَّهُ
بِســـؤالِـهم لاحق فاِعْجَب واِعْـجب
لـولا الحَـيا وَعِـــزَّةٌ لَـخْـــمِـيَّـــةٌ
طــي الحَــشا سـواهـم في المـطلـب
قَدْ كان إنْ سُـئِلَ النَّـدَى يُجْـزِلْ وإنْ
نـادَى الصَّـريخُ بِـبـابِه اِركَـبْ يَـركَـبِ

1- انْـظُر: «المُـعْجِـب» (ص:145) مطبعة دار الاستـقامة.

فهذه القصة تــدلنا على أنَّ الشعـراء كانوا بـطنجة بكـثـرةٍ كما يتـبيَّن مِنْ قَــول صاحب «المُعْـجب»: "تعَـرَّضوا له بكـلِّ طريقٍ، وقَـصدوه مِنْ كـلِّ فَـجٍّ عَـميــقٍ".

وكما يتبـيَّـن مِنْ تخصيـص المُـعْـتَمِد بنِ عَـبّاد لهـم بالذِّكـر في شِعـره. وقـد أقـام المُعـتَمِد بـطـنجة أياماً ثـم اِنـتــقـل إلى مِكناس، ومـنها إلى أغْــمَاتَ حيث أدركــته الـوفاة فــدُفــن بـها.

وهذا يـؤيـد ما ذكـره بعضُ المـؤرخـين أنه كان بـطنجة أيامَ الـدولة اللَّـمْـتـونيَّـة المُـرابِطِية نحـو مـائـة أديـبٍ. فـوجـود هذا العـدد العـظيـم مِنَ الأدباء في البـلـد، يـدلُّ دلالــةً واضِحةً على أنَّ سُـوقَ العِـلم والأدب بـها بلـغ النـهـاية في الــرفــعة، ووصَـل إلى الأوج في عُـلُـوِّ المنـزلة.

ومِنْ أجل ذلك نـرَى لِسانَ الـدِّينِ بْنَ الخَـطِيبِ الإمامَ الأديبَ الذي حاز قَـصبَ السَّـبق في عـلوم الأدب وغيرها، يـقـول في كـتابه: «مِعْـيار الاخْـتـيار فِي ذِكْـرِ المَـعاهِـد والـدِّيار» -وهـو كـتابٌ لطـيفٌ وصف فيه مُـدن المغـرب والأنـدلس وصـفاً دقـيقاً، وأعْـطَى لكــلِّ بلـدةٍ مِنَ القُـطريْن حـقَّـها بدون تحـيُّـزٍ ولا مَـيـزٍ - في وصـف بـلدتـنا طـنجة بعـد كـلامٍ: «وساكـِنُها غَـيرُ مَــلُـومٍ، وفَـضْـلُـها معــلومٌ، ودارُها ليـست بِـدارِ لُــوم»[1].

1- اِنْـظُر: (ص:39) مِنَ الكتاب المذكور، مطبعة اليمني بـفاس.

فأخبر أنَّ فضلَها معلومٌ عندهم، مُقَررٌ لديهم، وهُمْ لا يريدون بالفضل إلا العِلمَ والأدبَ والمعرفة. ويؤيد ذلك قوله: "ساكِنُها غَيرُ مَلومٍ"، إذ لا يُلام مَنْ يَسكُن في دار العِلْم والفَضل والأدب كما هو معلومٌ عند كلِّ أحدٍ. ويؤيده أيضاً قوله في هذه المَقامة نفسِها: "وديارُها نَبيهةٌ، وعَلَى الجُملة فأحْوالُها بأحْوالِ جارتِها شَبِيهةٌ". ومعلومٌ أنَّ جارة طنجة هي الأندلس.

وما ظنُّك ببلدٍ يشبِّهه اِبنُ الخَطِيبِ بالأندلس !! قُلْ فيه ما شئتَ مِنْ مدحٍ، ووصْفٍ جميلٍ. فإنك لا تَبلغ المرادَ، ولا تُصيبُ الهدفَ والغَرضَ كما هو الشأن في الأندلس.

ويُحتمَل أنْ يكون المُراد بالجارة في كلام اِبنِ الخَطِيب مدينة سَبْتَةَ، فهي جارةٌ لطنجة أيضاً. وفي تَشبيه طنجة بسَبْتَة أيضاً على هذا الاحتمالِ فَخْرٌ وشَرفٌ لها ومزيَّةٌ عظيمةٌ. لأنَّ سَبْتَة كانت في ذلك العصر قد بلغَتْ مِنَ الرُّقِيِّ والتقدم في العلوم والفنون ما لا يخطر على بال أحدٍ. ولولا أنَّ كُتبَ التاريخ تظافرت على نقْلِ ذلك مِما حصل به العِلم الضروري عند أهل العِلم، لَمَا صَدَّق العقلُ ذلك الازدهارَ والعمرانَ والرقيَّ، الذي بلغَتْه تلك البلدة التي لايدلُّ حاضِرُها على ذلك الماضي المجيدِ الحافِلِ بالفخرِ، ولكنْ هو الدهرُ فكَمْ عَمَّرَ مِنْ خَرابٍ، وخَرَّبَ مِنْ عُمْرانٍ !!

وصَدَق اِبنُ الخَطِيب رحمه الله تعالى فيما قال، وأتَى عيْنَ الحقِّ والصوابِ فيما وصف به طنجة، وقاله عنها مِنْ أنَّ فضلَها معلومٌ.

فإنَّ بلدتـنا طنجة منذ خلـقها الله تعالى وأوجـدها على ظهـر الأرض، وهي تـتـقـلَّب في الفـضل، وتجُـرُّ أذيالَ الفخــر، ولو لمْ يكـنْ مِنْ فضـلِها وشَـرفِـها، وفخـرِها وعُـلـوِّ مـقامِها، إلا ذِكـرُ الله تعالى لها في كـتابه العـزيز، الذي صارت بسببه تُـحْـفَـظ في شرق الأرض وغـربها مدَى الدُّهـور والعصورِ إلى أنْ يـبعثَ الله مَنْ في القـبـور، لكـفاها ذلك بل لـكان فـيه الغُـنْـية عـن أنْ يُـذكَـر غــيرُه معه، ويُـشْـفع بـشيءٍ آخَـر فيه مــزية ورفـعـة.

أخْـرجَ اِبنُ أَبِي حاتِـمٍ عن مُحَمدِ بنِ كَعْـبٍ في قـوله تـعالى: ﴿مَجْمَع البَحْـرَيْـن﴾[1]، قال: طـنجة[2].

فهـذه خصـوصـيةٌ لطـنجة اِمـتازت بها عن غـيرها مِنْ مُـدنِ المغـرب وكـثيرٍ مِنَ الأقـطار، وشُـرِّفـت بـسـبـبها على القُـرىَ والأمـصار، وثــبت لأهلها وساكِــنيها بذلك الفـضل والشـرف والفخر رغـم كـلِّ أحَـدٍ.

وقـد قال المفسرون المراد بِمَجْـمَع البَحـرَيْن: بَحــرُ فارسَ وبَحــرُ الــرُّوم. وهذا بعـيـدٌ في نَـظري جِداً، بل باطِـلٌ. لأنَّ بحْـرَ فارس وبحْـرَ الـرُّوم لم يـكـونا مُـلـتـقِـيَيْـنِ ولا مُجتَمِعَيْــنِ مطلقاً، لوجود الفاصل بينهما وهو أرضُ مِــصْـرَ؛ لأنَّ الاتِّـصال بيـن البَحْــرَيْن لم يَحْـدُثْ إلا منـذ عهـدٍ قــريبٍ جداً في عهـد إسماعـيل باشَا، حيث حفـر القَــناةَ التي تربـط البحــر الأبيض المتوسط بالبحــر الأحمــر، بين مدينَـتَيْ بُــورْسَعِــيد والسّـويــس.

1- سورة الكهف، 59.

2- اِنْـظُر: «الــدُّرُّ المَـنْـثُـور» للسيـوطي (4/235).

هذا إذا قلنا أنَّ المراد بالبحر الفارسي هو البحر الأحمر، وهو بعيدٌ جداً لا يؤيده دليلٌ.

وأما إذا ذهبنا إلى أنَّ البحر الفارسي -وهو الذي يَشْهَد له الواقع- وهو ما كان بين جزيرة العرب وبلاد العَجَم، فيزداد الأمر في الغرابة والبُعد في حَمْلِ الآية الشريفة عليه. لأنه ليس هناك اِجتماعٌ بين البحْرَين مُطلقاً، وإنما هو بحْرٌ واحدٌ كما هو معلومٌ لِمن له خبرةٌ بالجغرافيا. بخلاف طنجة فإنها مَجْمعُ البَحْرَين حقيقة، إذ عندها يجتمع بحرُ الرّوم ببحْرِ الظُّلُماتِ كما يسمِّيهما العَربُ قديماً، أو البحْرُ الأبيضُ المتوسِّطُ بالبحْرِ الأطلنطي أو الأطلسي، كما يسمِّيهما الجغرافيون اليوم بِدون فاصِلٍ ولا حاجِزٍ.

ومَنْ قال مِنَ المفسرين إنَّ المرادَ بمَجْمَع البحْرَيْن: بحْرُ فارس وبحْرُ الرّوم، فإنما ذلك لجهله بحقيقة الأمر، وغفلتِه عن كون البحْرِ الفارِسي لا يجتمع عنده بحْرُ الرّوم مطلقاً أبداً منذ خلق الله تعالى الأرض.

فلو تأمَّلَ قائِلُ هذا القول لوجَدَ نفْسَه يُكَذِّبُ كلامه بكلامه، ويُبْطِل قوله بقوله، ويعارض أول كلامه بآخره؛ وتجِدُ هذا قد صدر مِنْ واحِدٍ ثم أخذه عنه الباقي بدون عمَلِ فِكْرٍ، وتكَلُّفِ بحْثٍ عن كون هذا القول هل يطابِقُ الواقِعَ ويؤيده ما هي عليه وضعية البحار أوْ لا؟؟ ولا يرتاب عاقِلٌ نبيهٌ أَنَّ تفسيرَ البحْرَيْن بِبحْرِ فارس والرّوم مِنْ باب المكابرة ونكران المحسوس، فلا

يلـيــق بعـد هذا حَمْــلُ كـتاب الله تعالى عـليه.

ويؤيد كون المراد بمجمع البحرين طنجة، ما رواه ابنُ المُــنْـذر، وابنُ أبِـي حاتِــم عن أُبَـيٍّ بنِ كَعْب رضـي اللـه تعـالى عنه، في قولـه تعـالى: ﴿مجمع البحرين﴾[1]، قال: إفـــريـقــية؛ كما في «الـدُّرِّ المنْـثـور»[2].

ويؤيده أيضاً ما ذكره الحافظ السُّهَــيْــلي في كتاب: «التعريف والإعلام بمُبْهَــمات القرآن» في تفسير قوله تعالى: ﴿فانْطَـلَــقا حتَّى إذَا أَتَــيَا أهْـلَ قَريَةٍ﴾[3]، قال: هي بَـرْقَــة. فهذا كله يدل على أنَّ القصة كانت في الشاطئ الإفــريقي الذي فيه طنجة، مما يدل على أنَّ الاجتماع كان في طنجة، وأنها المراد بمجمع البحرين كما قال محمدُ بْنُ كَعْــبٍ رحمه الله تعالى، وهذا مِنْ جهة النـقـل.

وأمَّا مِنْ جهة النظر، فإنَّ الخَضِر عليه السلام شرب من عين الحياة كما جاء في الأثر، ولذلك طال عمره. وعين الحياة في القطعة التي بين المغرب والجنوب كما قال ابن الوَرْدي في «خَرِيدة العجائب»[4]. فهذا يدل على أنه سلك في هذه البلاد ودخل إليها عند ذهابه إلى تلك العين؛ ويؤيده أن الخضر عليه السلام كان على رأس البعثة التي أرسلها ذو القَـرْنَيْن لتبحث له عن عين الحياة، وقد قال العلماء لِذي القَـرْنَيْن لمَّا جمعهم لسؤالهم عن

1- سورة الكهف، 59.

2- «الـدُّرِّ المنْـثـور» للسيوطي (4/235).

3- سورة الكهف، 59.

4- «خَرِيدة العجائب» (ص: 5) مطبعة الحلبي.

هذه العين أنَّها في أرض ظلمة عند مغرب الشمس..[1]

ويؤيده أيضاً ما ذكره ابنُ حَيَّـان في «المقتبس» أنَّ الخَضِرَ عليه السلام وقف على **اشبان** الذي سميت به الأندلس إسبانيا، وهو يحرث الأرض بفدان له أيام حراثته، فقال له: يا أشبان إنك لذو شأن، وسوف يحظيك زمان، ويعليك سلطان، فإذا أنت غلبت إيلياء فارفق بذرية الأنبياء.. الخ القصة[2].

فالمتعين بعد هذا هو أَنَّ المراد بمجمع البحرين مدينة طنجة لا غيرها كما ظهر لك مما قررناه.

وقد اِنتظم مع هذا الفخر الذي حازته طنجة بذكرها في الكتاب العزيز، وهذا الشرفِ الرفيع، والعزِّ العظيم الذي نالته بسبب ذلك، فخرٌ آخر وشرفٌ عظيم معتبر، وهو دخول كليم الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام ورفيقِه يوشع والخضر عليهما السلام إليها.

فإنَّ هذا مما يجب أنْ يُعتبرَ مِنْ عظيم المناقب لهذه البلدة الطيبة، ويُعدَّ لها مِنَ المفاخر التي اِمتازت بها عن غيرها. فقد جعل الله تعالى العَلامَة لموسى عليه الصلاة والسلام على محلِّ الخضر هي فـقـدان الحوت ونسيانُـه؛ وعند بلوغه هو ويُـوشَع عليهما الصلاة والسلام ﴿مجْمَعَ بيْنِهِما نَسِـيَا حُـوتَـهُما﴾[3]، فَـدلَّ على أَنَّ الخَضِر عليه السلام كان بطنجة، فهـؤلاء الأنبياء الثلاثة وأحدهم وهو موسى مِن أُولِـي العَـزْم وكليم الله

1- انظر: «عرائس المجالس» للثعْـلَبي (ص: 367) مطبعة الحلبي.

2- راجع: «نَـفْح الطيب» (134/1) مطبعة مصطفى محمد.

3- سورة الكهف، 60.

تعالى عليهم الصلاة والسلام، ستكون ترجمتهم في طليعة الداخلين إلى طنجة الوافـدين عليها.

فيا له مِنْ شرفٍ وفخرٍ وفضلٍ، ويُضَمُّ إليهم نبيٌّ رابِعٌ وهو ذو القَـرْنَـيْن، فإنه دخل إلى طنجة كما هو معلومٌ، وهو نبِيٌّ على القول المختار.

فصل

ومما يرجع إلى فضل بلدتـــنا مِنْ ناحية اِسمها، أنها مسمّاةٌ على اِسم حفيد نوح عليه الصلاة والسلام، فقد ذكر المؤرخون أنَّ أول مَنْ عمَّـر سواحل المغرب البحرية قبل دخول البربر له، أولاد يافـت بْنِ نُوح عليه الصلاة والسلام لما نزلوا الأندلس؛ وأنــدلس بن يافت هو أول مَنْ نــزلها في إخوانه، وتناسلوا بها. ولما كَـثـر نسلـهم، تــفـرَّقــوا. فبــنَى سَبْتُ سبْـتَــة، وبنَى طَـنْجُ طنـجة، فنُسِبت إليه. فخرج بهذا اِسمُها عن النكارة وبانيها عن الجهالة.

وفي هذا أيضاً مزيةٌ عن كثير من المدن التي لا يُعْرف لِاسمِها واضِعٌ، ولا لِأساسها صانِعٌ. ومِن هذا القول يَظهر لك بطلان مَنْ جعل أصل طنجة طــبــجة -بالباء بدل النون- تَـقولاً مِنْ عنده، وقال: معناه في اللغة الحماقة، أو كلاماً هذا معناه. وهذا شيءٌ لا أصل له، ولا يرتكــز على حــقيــقــة، وإنما هو مجرد تخريف وهَوَس فلا يلتـفت إليه. وطنجة منذ كانت وِاسمها عند المؤرخين شرقاً وغرباً معروفٌ بأنه غير مشتــقٍّ مِنْ شيء، مما يؤيـد ما ذكــروه مِنْ أنها مسماةٌ على طَنْــج حفـيــدِ نوحٍ

عليه الصلاة والسلام.

ويُبطل هذا التقــول مِنْ أصله قـول شيخ اللغة وإمامها أبي القاسم الزَّمَخْــشَـري في كتابه «الجبال والأمكنة والمياه»[1]: "طنجة بلــدٌ، وليس بعربيٍّ". فصرَّح بأنَّ اِسمَها غـيـرُ عربيٍّ.

1- انظر: «الجبال والأمكنة والمياه» (ص: 69) مطبعة النجف.

فصل

ويدلُّ على عظمة طـنجة وبلوغـها المقام الأسنى في العلوم والمعارف، أنه لم يشتهر مِنْ مدن المغرب منذ الفتح الإسلامي إلا هي، ولم يُذكَــر مِنْ بلدانه في كتب العلم والتاريخ إلا اِسمها. حتى إنه في عهد مولاي إدريس رضي الله تعالى عنه، لم يكـن يُــنْسَبُ المغاربة إلا إليها، ولا يُذكَـــرُ المغربُ كـلُّـه إلا بِاِسْمِها لاسيما عند المشارقة. وما هذا إلا لاتِّــساع دائرة العـلم بها، وكثرة أهل العلم والفضل بين أبـنائها كما هو الشأن في العواصم الكبيرة، والمدن العظيمة في الأقطار. فإنَّها لعِــظَمِها وكثــرة عمرانها يُطـلَــقُ اِسمُها على القــطر كله، ويغــلب لـقبها على ما يتــبعها بأجمعه، كما وقع في مُـرّاكُـش، فإنَّها لما اِزدهرت وصارت عاصمة مُــلك اللَّـمْـتُونِـيِّـين أُطلِقَ اِسمُها على المغرب كـله، وجــرَّ لــقــبُها ذيــلَه عليه فصار يقال له مراكش، مع أنه اِسمٌ للعاصمة وحــدها.

وقـد عـبر في المدونة بِاِسْـمِها عن المغرب، ففــي كتاب النكاح الأول: "ومَنْ غاب عـن بـنته البِكْـر غـيْـبَـة اِنْـقِطاعٍ إلَى مِـثْـل إفـريــقــية والأنــدلس وطــنجة.. إلخ".

قال اِبْـنُ غـازي في «تكـميل التـقــييـد» عند هذا القول: "طنجة كانت قاعـدةَ المغـرب زمَن الإمام مالك، وابن القاسِـــم".

وكــذلك أخبـر أَبُــو الحَـسَن الأشْــعَــري رحمه الله تعالى عن المغرب كــلِّــه بِاِسْـمِ طنجة في كتابه النفيس: «مقالات الإسلاميـين»، المطبوع بإصطنـبول[1].

فهذا يـدلُّ على ما قــلتُه مِنْ أنه لم يشتهر مِنْ مُـدن المغــرب عـند المشارقة في الـقِـــدَم إلا هي.

قال في «جـذوة الاقــتباس» بعد كلامٍ ما نـصّه :"وسار إدريسُ ومَــولاه راشِــد حتَّى نــزلا مدينةَ طنْجة الخضراء، وهي يومئــذٍ قاعــدةُ المغرب وأُمُّ مُـدُنه، إذ لم يكن يومـئذٍ بالمغرب مدينةٌ أعظــم منها ولا أقــدم، والشهرة لها أسبابها، ولا سبب لها إلا الــرقي، والتقدم والازدهار في العلوم والفنون، لا سبب لها سوى ذلك. فما **حازت طنجةُ الشهــرةَ إلا بذلك.**

وهذا الاشتهار لم تخـتص به عند المشارقة فحسب، الذين قد يــقـال إنَّهم لا يعـرفــون حقـيقــة الأمر لبُعْــدِهِم عنها، بل حتَّى أهل الأندلس كانوا ينسبــون إليها المغاربة، كما في كتــاب «معـيار الاخـتـيار» لابْنِ الخَطِيب في وصف طنجة، فإِنَّه قال فيه[2]:

"قـلتُ: فـطنجة، قال: المدينة العـدية التي ليست بالخبيثة ولا بالردية إليها بالأندلس كانت نسبة المغاربة، والكتائب المحاربة، والرفاق السابحة

1- اِنْـظر أوَّلَ الجزء الأول منه.

2- انظره، ص: 39.

في الأرض الضاربة..".

فكــلُّ هذا يُـثبِت لطنجة جميل الأحدوثة والذِّكـر الطيب، وهو على النقيض مِنْ قول مَنْ زعم أنها لم تَــزلْ منذ كانت مهْمَــلَةً منْسِيةً لم تُــذكر في كتب التاريخ، ولم يَجْــرِ ذِكرُها فيه بما يعتــزُّ به أبــناؤهـا؛ فإِنَّ التاريخ لم يحـفـظ لغـيرها ما حفظه لها مِنَ الفضل، والفخر، والشرف، وجميل الذِّكر منذ خلق الله تعالى الأرض كما قـلنا سابقاً. بل كان لطنجة في دولة المُــوَحِّــدِينَ شأنٌ عظيــمٌ جـداً، حتى أنهم لم يكونوا يُــوَلُّــون عليها إلا مَنْ له قــرابــةٌ مِنْ بَنِي عبْدِ المُومِن. وذلك لأنها كانت مِنْ أعظم عمالاتهم وأكبر ممالكهم كما قال اِبنُ خَـلْـدُون.

وقد قال المؤرخون: إنَّ طنجة كانت قبل الفتح الإسلامي عاصمةَ المغرب، وكانت عَـمالَـتُها مسـيرةَ شهْـرٍ في مِـثْـله، وإِنَّ ملوكَ المغـرب كانت دارُ مملكـتِهم طنجة، وكان لها عند الرومان شأن عظيم وكانت تسمى عندهم (طَـنْجيس)، أكثروا البناء فيها وبالغوا في عمرانها إلى درجة غريبة، وتفصيل ذلك يُعْلَم من كتب التاريخ.

ويؤيد هذا أنه لا زالت إلى الآن توجد فيها بين الحين والآخر آثارهم في جهات متعددة منها، مِن مقابر، وبناءات، وقصور عظيمة.. مما يدل على أن مساحة عمرانها واتساعها كانت كبيرة في عصرهم. وقال البَكْري أثناء كلامه على طنجة[1]: ((...وفيها آثار للأُول كثيرة، وقصور، وأقباء، وغِيران، وحمامات، وماء مجلوب في قناء رخام كبير، وصخر منجور...)).

1- انظر: المَسالك و المَمالك: 1 / 104، طبعة باريس.

ولن تجد لمدن المغرب قاطبة تاريخاً قديماً ذا عظمة ومجْد كما تجد ذلك لطنجة، فالمُنْكِر لمزية طنجة وشهادة التاريخ لها بالتقدم في سائر نواحي العمران قبل الإسلام وبَعْده، يُنكِر المحسوس ويكابر الحق الواضح الجلي.. وينبغي أن يُعْـرِض الإنسان عمن يصل به الحال إلى ذلك.

فصل

وإذا تركنا كتب التاريخ جانباً، وذهبنا إلى ميدان العلوم والفنون سواء منها الحديث، أو الفقه، أو القراءات، أو النحو، أو الأدب، أو التاريخ، لنرى هل الخبر يدل على المخبر؟ فإننا نجد لأهل طنجة في هذه العلوم الصَّولة والدولة، وما تثبُتُ به المزية والغرة ويُدفَع به ما أراد منْكِر فضلها أنْ يلصقه بأهل طنجة من قبيح **العرة**.

أما في الحديث والرواية، فقد تبَرَّز فيهما من أهل بلدتنا ما قلَّ نظيره، ولم يُذكَر مثله لغيرها من مدن المغرب، ورحل الكثير من أبنائها إلى الأندلس للسماع والتحمل، على قاعدة البُـزَّل من أهل الحديث.. سنذكر من ذلك جماعة على سبيل المثال لا الحصر، لأن الحصر يحتاج إلى فراغ البال وإلى كتب كثيرة وهما مفقودان في هذا الوقت، ولكن فيما سأذكره الكفاية والغُنْية في دفع المَعَرة؛ وقد أديتُ بذلك الدَّيْنَ الذي علَيَّ لطنجة مسقط رأسي، ووطن والدي الثاني، وفرغت ذمتي منه و لله الحمد والمنة. وإذا مد الله تعالى في الأجل وتيسرت الأسباب لجمع كتاب أعظم من هذا وأوسع في تاريخ بلدتنا و فضلها ومزاياها، فإني سأبادر إليه بحول الله

تعالى وقوته، أما الآن فيكفي هذا القدر من هذه الدُّرر التي نظمْتُها في سلك مفاخر طنجة و أهلها، وحلَّيتُ بها جِيد أبنائها كما تُحَلى العروس بعِقْـدها والحسناء بقرطيها.

فصل

فمِن **أهل الرواية** مِن أهل طنجة:

عَلِيٌّ بنُ هَرون الطنجي، قاضيها أيام العلوية. قال ابنُ بشكوال في «الصِّـلة»: ((..رحل إلى الأندلس، وسمع عبَّاسَ بنَ أَصْبَغ، وغيره.. ووَلِي ابنه القاسم قضاء بلده -قال ابن بشكوال- أفادنيه القاضي أبو الفضل عياض، وكتبه لي بخطه..)).

ومنهم: **عبدُ الله بنُ عليٍّ بنِ عبدِ الملك بنِ سمجون اللـواتي**، من أهل طنجة، يُكنى أبا محمد. قال ابن الأبَّار في «التكملة»: ((..روى عن أبيه، وعمه أبي عبد الملك مروان بن عبد الملك، وأبي محمد المأموني، وأبي بكر بن صاحب الأحباس، وأبي عليٍّ الغَسَّاني، وأبي عبد الله بن خليفة المالقي... وغيرهم. توفي سنة 534هـ

ومنهم: **عبد المنعم بن عبد الله بن علوش، المخزومي، الطنجي** منها يكنى أبا محمد. قال ابن بشكوال في «الصلة»: ((..له رواية عن أبي عبد الملك مروان بن عبد الملك بن سمجون القاضي، وأبي الحسن الحصري

المقرىء، وغيرهما.. واستقْـضَى بغير موضع من مدن الأندلس. وشهر بالفضل، والعدل في أحكامه. وتوفي بِـأَلْمِرِيَة سنة 524 هـ.)).

ومنهم: **عبد الله بن سمحون -بالحاء المهملة- الطنجي**. قال ابن الأبَّـار في «التكملة»: ((..لقي أبا محمد عبدَ الله بنَ محمدٍ الباجي، الـرَّاوِية، وحمل عنه برنامجه، وأجاز له في رمضان سنة 397 هـ)).

ومنهم: **محمد بنُ عبدِ الله بنِ عبدِ الكريم الأنصاري**، من أهل طنجة. قال في «التكملة»: ((..دخل الأندلسَ، فسمع بقرطبة مِن أبي الحسن بن مغيث، وأبي مروان بن مسره، وغيرهما. وكان أديباً شاعراً توفي سنة 585 أو نحوها..)).

ومنهم: **محمد بنُ مفرج بنِ سليمان الصنهاجي**، يُكنى أبا عبد الله. قال في «التكملة»: ((..أصله من طنجة، لقيَ أبا الوليد الباجي وسمع منه ودرس عنده قليلا، وسمع مِن ابنه أبي القاسم أحمد كثيراً، ومِن أبي عبد الله بن شبرين، وأبي الأصبغ بن سهل، ومروان بن سمحون بطنجة. و أجاز له أبو عبد الله بن سعدون وغيره. أخذ عنه القاضي عياض وقال: توفي سنة 536 هـ)).

ومنهم: **مرجي بنُ يونس بنِ سليمان بنِ عمر بنِ يحيى الغافـقي**، المرجيقي الأصل، الأندلسي. روى عن أبي القاسم القنطري ونظرائه. وكان من أهل المعرفة بالقراءات والعربية، ولم يَرْوِ إلا كبيراً. وله شرح على قصيدة الحصري في القراءات، أخذ عنه وسمع منه، وقد قرأ بسبتة، وطنجة وبها كان ساكناً. وممن أخذ عنه أبو العباس العَزَفِي، وأبو الحسن

الشاري، وأبو الفضل عِـياضُ بنُ محمدٍ بنِ عِـياض، وأبو عبد الله الطراز، وغيرهم. وأسنَّ حتى بلغ التسعين، وكان دَيِّـناً، فاضلا، مقرئاً، نحوياً.

قال ابن الأبَّار-: ولم أقف على تاريخ وفاته رحمه الله تعالى.

ومنهم: **عبدُ المنعم بنُ مروانَ بنِ عبدِ الملك بنِ سمجون اللّـواتي**: من أهل طنجة. قال في «التكملة»: ((..نشأ بغرناطة، وتفـقه بها على أبي محمد عبدِ الواحدِ بنِ عيسى، وسمع مِن أبي عليٍّ الغَسَّاني، وكان فقيهاً جزلاً، مهيباً، ولي قضاء إشبيلية بعد صرف أبي مروان الباجي عن ولايته الثانية. توفي سنة 534 هـ)).

ومنهم: **عبدُ الله بنُ محمدٍ بنِ عبد الله الصنهاجي**، من أهل طنجة. قال ابن الأبار: ((..سمع بسَبْتَة أبا محمدٍ بنَ عبيـد الله، وبمدينة فاس أبا عبدِ الله الفندلاوي، وأبا محمد بنَ زيدان، وبـقصر عبدِ الكريم أبا محمد عبدَ الجليل بنَ موسى أخذ عنه « شُعَب الإيمان» مِن تأليفه، وأجاز له أبو العباس بن مضاء، وأبو محمد بن فلـيح، وأبو القاسم بن الملجوم، وأبو ذر الخشني، وأبو علي الرندي..

وانظر: «تاريخ الأندلس» لابن الفَـرضي، و«الصِّلة» لابن بشكوال، و«صِلة الصِّلة» لأبي جعفر بن الزبير، و«التكملة» لابن الأبّـار، و«بغية الملتمس في تاريخ الأندلس» لعميرة الضبي، و«معجم أبي علي الصَّدَفي»، لتقف على ما لم أذكره من الرواة من أهل طنجة.

وهذه الكتب كلها مطبوعة بإسبانيا، وهي المجموعة المعروفة باسم «المكتبة الأندلسية»، وكذلك «الأنساب» للسَّمْعاني -طبع لندن.

وأنا ما ذكرت إلا القدر الكافي في إثبات عناية أهل هذه البلدة بالرواية، واجتهادهم في سماع الحديث من شيوخ العَدْوَتين، وبيان أنهم خلدوا الذكرى الحسنة بذكرهم في كتب التاريخ بين رواة الحديث وحَمَلة الآثار.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أبا الدنيا الأشج الطنجي المشهور عند المحدثين في شرق الأرض وغربها، قديماً وحديثاً. وهو وإن كان واهياً عندهم ضعيفاً لديهم لا يُلْتفت إلى روايته، ولا يُعوَّل عليها، لكن ذلك لا يضر ولا يمنع من ذكره بين أهل الرواية من أهل طنجة كما هو معلوم؛ فإنك لو تتبعت كتب الحُفّاظ المؤلفة في تاريخ مدنهم وبلدانهم لوجدتهم يذكرون مَن نُسِب إليها، ويضاف إلى أبنائها كيفما كان حاله وصفته. وانظر ترجمته في: «الميزان» للذَّهَبي، ولسانه للحافظ ابن حجر، و«الإصابة» له أيضا.

وهذا القدر الذي ذكرناه ومَثَّلنا به إنما هو من أهل طنجة الذين هم من أبنائها، أما الغرباء الداخلون إليها من البلاد الأخرى المقيمون بها فذلك أيضاً لا يُطمع في حصره، وهم يُعَدّون من أبناء طنجة وأهلها كما قلنا في المقدمة، ولنذكر منهم على سبيل المثال:

الإمام محمد بن عبد الله بن الغازي بن قيس، من أهل قرطبة، يُكَنى أبا عبد الله، سمع من أبيه، ورحل إلى المشرق فدخل البصرة، فلقِيَ بها أبا حاتم سهل بن محمد السِّجِسْتاني، وأبا الفضل العباس بن الفرج الرياشي، وأبا إسحق إبراهيم بن خداش، وأبا موسى عيسى بن إسمعيل العتكي، وأبا سعيد عبد الله بن شعيب، وجماعة سواهم مِن أهل الحديث، ورواة الأخبار، والأشعار، وأصحاب اللغة والمعاني؛ وأدخل إلى الأندلس علماً كثيراً

من الشعر، والغريب، والخبر. وعنه أخذ أهل الأندلس الأشعارَ المشروحةَ كلَّها روايةً.

خرج من الأندلس إلى طنجة سنة 395 هـ ومات بها، وكانت كتبه عند أقوام بطنجة. انظر: «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفَرَضي، و«بغية الملتمس»، و«طبقات الزبيدي».

وأمَّا **الفقـه**، فقد تَبرَّز فيه عدد كبير من أهل بلدتنا طنجة قديماً وحديثاً، وأعظم دليل على ذلك ما حوته كتب النوازل والفتاوى الفقهية كالمعيار وغيره من فتاوى العلماء الطنجيين، الذين كانت تَرِد عليهم الأسئلة من النواحي المختلفة، فيجيبون عنها بأجوبة مفيدة قيمة، مما جعل مؤلفي النوازل يُدْرجونها في كتبهم كما يُعْلم من مراجعة «المعيار» وغيره.

وقد حفظ لنا التاريخ عدداً كبيراً من أئمة الفقه من أهل طنجة، نذكر منهم على سبيل المثال:

مروان بن عبد الملك بن إبراهيم بن سمجون اللواتي، يُـكنى أبا عبد الله، أصله من طنجة.

قال ابن الأبَّار في «التكملة»: ((...له سماع من **المصريين ابن** نفيس، وابن منير، وأبي محمد بن الوليد، وجالس عبدَ الحق الفقيه بصقلية، وسمع مِن أبي عليٍّ المعروف بابن مدكيو فقيه سجلماسة بها، عن أبي محمد بن أبي زيد. وولي الصلاة والخطبة والفتيا بسبتة. ثم انتقل إلى طنجة حدود الدولة اللَّمْتونِية وولي صلاتها، وخطبتها، وفتياها ثم أحكامها. وتصدَّر

قديماً لإقراء القرآن، وكان مقرئاً، فقيهاً، لغوياً، وله شعر فيه **تقعر**، وخُطَب فصيحة، وكان لا يَلْحن في كلامه. توفي بطنجة سنة 491 هـ وصلَّى عليه ابنه الأوسط عبد الوهاب..)).

وإبراهيم بن جعفر، الفقيه المشاور، أبا إسحاق اللواتي الطنجي، قال في «الديباج»: ((..مِن أهل الدين والفضل والعقل، أخذ عن شيوخ سبتة، واقتصر على الفقيه أبي الأصبغ، ولازمه وكتب له في قضائه في طنجة، ومشى معه إلى غرناطة فكتب له بها، وكان مختصاً به، سمع منه جميع كتبه، وكان بصيراً بالشروط والوثائق، ولم يكن في عصره مَن هو أقوم عليها منه. شاوره قاضي الجماعة أبو محمد، والقاضي أبو إسحق إبراهيم بن أحمد، والقاضي أبو إسحق بن يربوع، ولم يزل كذلك إلى أن توفي.

وكان يُدَرس «المُوَطأ» ويتفقه فيه، ألَّف **مختصراً** ابن زَمَنين على الولاء، نَحا فيه بأحسن رتبة. وكان عاقلا، مهيباً، كثير الوقار، لا يتكلم أحد في مجلسه إلا مسألة علم أو كلام فيه منفعة.

توفي في سنة 513 هـ)).

وأما **النحو واللغة**، فقد كان في أهل طنجة عدد عظيم من رجال هذين العِلمين الذين بلغوا فيهما المرتبة السَّنِية كما يُعلم من التراجم التي ذكرناها سابقاً وممن لم نذكره.

ويكفي في الدلالة على ذلك أنْ ينقل أبو حَيَّان أثيرُ الدين النحوي المشهور في كتاب «الارتشاف في لسان العرب»، وهو الكتاب الذي لم يؤلف مثله في العربية كما قال السيوطي رحمه الله تعالى عن أحد علماء طنجة

النحويين المنسوبين إليها، قال السيوطي في «بغية الوُعاة»[1]: ((...أبو عبد الله الطنجي شيخ من أهل النحو، نقل عنه أبو حيان في «الارتشاف»...)). وذكره هكذا.

[قلْـتُ]: ولا يضرنا عدم تسميته والغرض منه حاصل كما لا يخفاك، بل يظهر أن علم النحو كان له بين أهل طنجة رواج عظيم، ولهم ولـوع به، وإقبال عليه كما يدل على ذلك ما جاء في «بغية الوُعاة»[2] في ترجمة محمد بنِ خَلَـف بنِ صياف اللخْمِي الإشبيلي، قال:

((...وله أجوبة على مسائل قرآنية ونحوية أجاب بها أهل طنجة..)). وكما يدل هذا النقل على إقبال أهل بلدتنا على علم النحو يدل أيضاً على علـو همتهم في الاشتغال بالعلم، ومكاتبة أهله في البلاد البعيدة عنهم، وكذلك يدل هذا النقل أيضاً على اشتغالهم بعلوم القرآن.

وقد كان لهم في القراءات قدم راسخ كما يظهر مما ذكرناه سابقاً من تراجمهم، ولا عجب في ذلك فإن البلد الذي يقيم به أبو الحسن الحُصري المقرئ الشهير، ويتخذه وطناً له، لابد أن يأخذ أهله بحظ وافر من علم القراءات، وقد أثبت لنا التاريخ ذلك ببرهان قاطع وهو شرْحُ بعض سكان طنجة لقصيدة الحُصري في قراءة نافع، كما ذكرنا سابقاً في ترجمة **مرجي** بن يونس مما يدل على تبرزهم في هذا العلم. وقد قرأ **مرجي** المذكور في طنجة وسبتة كما تقدم في ترجمته.

1- انظره، ص: 294، مطبعة السعادة.

2- نفس المصدر: ص: 40.

وذلك يدل على أن طنجة كانت مهداً للعلوم كجارتها سبتة، وأن الأئمة تخرَّجوا بالقراءة على علمائها وشربوا من بحر علومهم الفياض. وحسْبُ طنجة في تاريخها العلمي أن يُذكر في تراجم العلماء أنهم قرأوا بها وأخذوا عن رجالها.

وأما الأدب، فرجاله من أهل طنجة لا يأتي عليهم الحصر ولا يُحْصيهم العدُّ. وقد تقدم عن بعض المؤرخين أنه كان بطنجة أيام الدولة اللمْتُونية نحو مائة أديب، وهذا غير بعيد ولا مستغرب.

فطنجة كما قلنا فيما مضى كانت باب المغرب الذي يدخل منه أهل الأندلس، والمجازَ الذي يسلكونه لبَرِّ العدوة، فكثر بسبب ذلك ورود الأدباء على طنجة، فعلَّموا أبناءها ونشروا بينهم فنون الأدب. ولو لم يكن بين أهل طنجة إلا أبو الحسن الحُصَري لكان كافياً في أن يكون أهل طنجة على جانب عظيم من علم الأدب وفنونه، ومَن راجع «قلائِد العِقْيان» للفَتح، و«دمية القصر في ذيل يتيمة الدَّهر» لأبي الحسن علي بن الحسن الباخرزي، المطبوع بحَلَب، يجدْ ما يكفيه في الدلالة على ذلك.

وقد ترجم في الدمية لأحد أعلام الأدب ومشاهير رجاله الذين بلغوا في علم الأدب وصناعة الشعر الشأوَ الرفيع وهو أبو منصور عبدُ الرزاق بنُ الحسين البوشنجي.

وقال: كان قاضياً بطنجة وبها توفي. و أطال صاحب الدمية في مدحه ووصفه، وذكر له نبذة من شعره الرقيق[1]...

1- انظر ص: 171 من الدمية.

وقد بلغ أدباء بلدتنا في قوة العارضة إلى درجة معارَضَة أهل الأدب من أهل الأندلس، وحسبك هذا منهم، كما وقع بين أبي يحْيَى بن المعلم الطنجي، وأبي الوليد الشقندي الأندلسي في مناظرة عند أمير سبتة في التفضيل بين بَرِّ العدوة والأندلس؛ فالطنجي يُفضِّل المغرب بلاده، والأندلسي يفضِّل وطنه[1].

وأما التاريخ، فيكفي أن يكون من آثار أهل طنجة فيه رحلة الرَّحالة العالَمي أبو عبد الله ابن بطوطة، تلك الرحلة التي أقبل عليها المشرق والمغرب قديماً و حديثاً، وترجمت إلى عدة لغات أجنبية، ويكفي في قيمتها وأهميتها أن وزارة المعارف المصرية قررت دراستها لطلاب مدارسها.

ويمكن الجزم بأنه لم يوجد رحالة مثل ابن بطوطة بين العرب والعجم، في الشرق والغرب. وقد اعتمد المؤرخون على رحلته ونقلوا منها ما حكاه فيها من وصف البلاد التي دخلها، والقضايا والحوادث التي وقف عليها، ولو لم يكن إلا نقْل أمير الحفاظ ابن حجر رحمه الله تعالى عنه لكفى جداً، وقد ترجمه في كتابه «الدُّرَر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» المطبوع في الهند، فليراجع.

وقد كان ابن بطوطة ذكياً نبيهاً، ذا عِلم وفهم، وبذلك أمكنه أن يتولى القضاء في عدة مدن من الأقطار التي دخلها، ويتقرب إلى ملوكها حتى زوَّجوه بناتهم، لأن هذا أمر لا يصله إلا من كان ذا مكانة علمية يُلتَفت لصاحبها ويُنْظر إليه.

1- راجع «نَفْح الطِّيب» (177/4) مطبعة مصطفى محمد.

وأما ما وَقَـع في رحلته من مسائل لا تتـفق مع الواقع، فذلك لا يضر رحلته ولا يقدح في قدره، لأنه من المعلوم أن الرجل مكث يجول في شرق الأرض وغربها سنين طويلة، وتعددت الحوادث التي رآها والوقائع التي شاهدها مع كثرة التـنقل في البلاد، ومَن كان هذا حاله فبالضرورة تخونه الذاكرة في محفوظاته، ويَعْـزُب عن ذهنه بعض ما رآه وشاهده.

وهذا لا ينازع فيه أحد لاسيما وقد ثبت أنه لم يكن يَكْـتب أثناء سفره، وإنما كان يعتمد على ذاكرته وحفظه، ولما قدِم المغرب طلب منه مَلِك ذلك الوقت أن يُملي رحلته وما شاهده ورآه من غرائب وعجائب على أبي عبد الله ابن جُـزَي، فأملى عليه ما عنده من غير ترتيب، فكتب ذلك ابن جزي ورتَّبه ترتيباً حسناً ونسبه إلى ابن بطوطة.

وإذا ثبت أن ابن بطوطة لم يكتب رحلته بيده، وإنما أملاها إملاءً فلا يبعد حينئذ أن يكون ما وقع فيها من وَهْم حصل من الكاتب لها والله أعلم؛ وعلى كل حال فابن بطوطة كان ذا علم و دين فلا ينبغي التسرع باتهامه لِوَهْم لم نعرف حقيقة أمره وقع في رحلته.

وبعد، فأين القائل بعد هذا بأن طنجة لم تُـذكر في كتب التاريخ بالفضل والعلم؟ ولم يَـتقدم في رجالها وبَنِيها مَن عُرف بشيء منهما؟ وأنها لم تزل منذ كانت مهمَلة في التاريخ خالية من أهل العلم و الفضل؟ فها نحن -ولله الحمد- قد أتينا بما يُبطل هذا القول ويرد هذا الكلام بما فيه الكفاية والغنية عن غيره إن شاء الله تعالى. لأن من المقرر المعلوم أنَّ السالبة الكلية تُـنْقض بالموجبة الجزئية كما قال تعالى في كتابه المحكم في نقض كلام اليهود: ﴿إذ قالوا ما أنزل الله على بشر مِن شيء، قُـل مَن أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾[1]، فنقض سبحانه وتعالى قولهم بنفي نزول شيء على أحد من البشر بِذكر ما أنزل على موسى عليه الصلاة و السلام.

وكذلك نحن قد أبطلنا ذلك النفي المطلق، والسلب الشامل بما ذكرناه من هذه الجزئيات الدالة عند كل عاقل ذي منطق سليم على بطلان الدعوى، وفساد القول. وبالله تعالى التوفيق.

وهذا فيما يرجع إلى تاريخ طنجة القديم.

1- سورة الأنعام، 92.

وأما في الحديث فبطلان هذا القول أظهر من أن يتكلف رده والجواب عنه، لأن المشاهدة والمحسوس أعظم دليل على ذلك.

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل. فإننا نرى ما يجده أهل العلم والدين والفضل الداخلون إلى طنجة والوافدون عليها من إقبال أهلها عليهم، وملازمتهم، وخدمتهم. وما ذلك إلا لِمَا طُبِعوا عليه خلفاً عن سلفٍ من حب العلم وأهله؛ الأمر الذي يدل على أنهم ذَوُو فضل وعِلم، لأن الفضل لا يعرفه إلا ذَوُوه، والعلم لا يقدره إلا حاملوه.

وقد رأيتُ بعيني رأسي ما كان يعامِل به أهل هذه البلدة الطيبة والدي رضي الله تعالى عنه، من الاحترام، والتعظيم، والإجلال، والإقبال عليه في كل وقت وحال؛ لأجل ما كان عليه وما أظهره وبَثّه فيهم من علوم ومعارف... وقد تخَرَّج عليه من أبنائها عدد غير يسير لا زالوا على قيد الحياة، ينفعون الناس بما أخذوه وتعلموه منه.

فهذا شيء شاهدته بعيني، ولمسته بنفسي كما شاهده غيري أيضاً، مما لا يبقى معه مجال للنكران والمكابرة. وقد كان هذا حالهم معه رجالاً ونساءً، شيوخاً وشباناً، وكذلك كان حالهم مع أخيه عمِّنا الشريف العلاَّمة سيدي القاضي، الذي دخل إلى طنجة قبله.

وهكذا الشأن مع كل من ظهر بينهم بالعلم والفضل. والكلُّ يعلم أن جدَّنا مِن قِبَل الأم، العلاَّمة الصوفي أبا العباس أحمد بن أحمد بن عجيبة

رحمه الله تعالى لمَّا دخل إلى طنجة أكرموا وفادته وأقبلوا عليه، وتزوج مِن كرائم بناتهم؛ وبلغ قدرُه عندهم أنَّ زوجه وهي مِن عائلة (بُوصُوف) المشهورة بطنجة دفنَـتْه في البيت الذي كان يسكنه من دارها، وفصَلتْه بعد الدفن عن الدار، وتركته مزارة يُـتبرك بها، ولا زال على ذلك إلى الآن. فهذا أبلغُ دليل على حب أهل بلدتنا في العلم والعلماء، وذَوي الفضل والشرف والدين. والحمد لله رب العالمين.

خاتمة

نختم هذه العجالة بالإشارة إلى أمر ينبغي أن يُذكر ويُنـظم مع هذه السطور، ويُـشْكر بذكره بين مفاخر طنجة وفضائلها التي تشرح الصدور، وتبعث في نفوس أهلها الفرح و السرور؛ وهو: أنَّ طنجة تقع في الإقليم الرابع على حسب تقسيم الجغرافيين العرب للأرض قديماً. وفي هذا الإقليم تقع قرطبة، وإشبيلية، وبَلَنْسِية، وغيرها من المدن الأندلسية التي أنجبت الفحول من الرجال، وحازت بذلك الفخر والمجد على مرِّ الأجيال.

وقد قال ابن حزم رحمه الله تعالى في رسالته في «فضْل الأندلس»:

((..إن قرطبة مع (**سُـرَّ** مَن رأى) في إقليم واحد، فَـلَنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا. وإنْ كانت الأنوار لا تأتينا إلا مغربة عن مطالعها على الجزء المعمور، وذلك عند **المحسنين** للأحكام التي تدل عليها الكواكب ناقص من قوى دلائلها، فلها من ذلك على كل حال حظ يفوق حظ أكثر البلاد بارتفاع أحد النَّـيِّرَيْن بها تسعين درجة، وذلك من أدلة

التمكن في العلوم والنفاذ فيها عند مَن ذكرنا. وقد صدق ذلك الخبر، وأبانته التجربة، فكان أهلها من التمكن في علوم القراءات، والروايات، وحفْظِ كثير من الفقه، والتبصر بالنحو والشعر، واللغة، والخبر، والطب، والحساب، والنجوم، بمكان رحْبِ الفناء واسع العَطَن..)) انتهى كلام ابن حزم.

ومنه يُعْلم فضل طنجة ومنزلتها الرفيعة مِن ناحيةٍ وموقُعُها في الأقاليم، ولا يخفاك أنَّ الإقليم الرابع الذي فيه طنجة هو أفضل الأقاليم السبعة و أعـدلها.

قال ابنُ خلدون في مقدمته[1]، في كلامه على المعتـدل من الأقاليم والمنحرف، بعد كلام: ((...فالإقليم الرابع أعْدَل العمران، والذي حفا فيه من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال، والذي يليهما، والثاني والسادس بعيدان من الاعتدال، والأول والسابع أبعـد بكثير. فلهذا كانت العلوم، والصنائع، والمباني، والملابس، والأقوات، والفواكه، بل والحيوانات، وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً، وأدياناً، حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها. ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية...))
ثم قال بعد أنْ ذكر طبيعة الإقليم الأول، والثاني، والسادس، والسابع[2]:

((...وتوسطت بينهما الأقاليم الثلاثة: الخامس، والرابع، والثالث. فكان لها في الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط حظ وافر، والرابع أبلغها في

1- انظر المقدمة: ص: 72، طبعة بيروت.

2- نفس المصدر، ص: 74.

الاعتدال غاية لنهاية في التوسط كما قدمناه، فكان لأهله من الاعتدال في خَلْقهم وخُلُقهم ما اقتضاه مزاج أهويتهم، وتبعه من جانبه الثالث والخامس، وإن لم يبلغا غاية التوسط لميل هذا قليلا إلى الجنوب الحار، وهذا قليلا إلى الشمال البارد، إلا أنهما لم يـنـتهيا إلـى الانحراف...)) انتهى.

ثم بعد هذا الفضل الذي حازته بلدتنا طنجة بوضعها الإقليمي، فإن الله تعالى قد حباها واختصها عن غيرها من مدن وبلدان كثيرة بهوائها الطيب المعتدل، ومائها العذب الذي لا تخلو منه جهة من جهاتها ولا مكان من أماكنها؛ فحيث ما ذهبت تجد العيون تجري والآبار تفور، بل حتى إن دورها وأزقتها لا تخلو من الآبار الكبيرة التي لا تغيض صيفاً ولا شتاءً.

وامتازت مع هذا وذاك بمنظرها الجميل، المنقطع النظير، الذي جمع بين البَرِّ والبحر، ومشاهدة الأندلس منها كأنها جزء منها وطرَفٌ مِن أطرافها فَصَل بينهما نهر عظيم.

وقد أحاط البحر بطنجة إحاطة القلادة بالعنق، مما زادها جمالاً وبهاءً، وصار كل من دخل إليها من الأجانب يتعلق قلبه بها، وترتاح نفسه للإقامة بها، ووَدَّ أن تكون وطنَه ومسكنه كما هو مشاهد.

ولا يمكنك أن تجد من أحد دخلها ذَمّاً لها، أو تنقيصاً في حقها كما هو الحال في المدن الأخرى، فإنَّ الداخلين إليها بعضهم توافقه، والبعض الآخر تنقبض منها نفسه ويضيق بها خاطره، بخلاف طنجة فكل من دخل إليها يجد انشراحاً في صدره وسروراً في نفسه، وهذه خصوصية لها وحدها ما

رأيتُها لغيرها من المدن. ويحق لها ذلك، فلو لم يكن بها إلا جَبَلها الكبير ذو المنظر الخلاب الساحر، الذي يأخذ بلب الناظر، وينشرح من موقعه الصدر والخاطر، لكفاها في المزية عن غيرها؛ فكيف و بها غيـره من الأجنة ذات الفواكه، والحدائق ذات الجمال والبهجة، ما جعلها بين مدن المغرب كالجنة، وبين البلدان كالشامة.

وقد نَصَّ المؤرخون وجميع من تكلم على أحوال البلاد و طبائعها على أن بلدتَـنا طنجة كثيرة الفواكه، والحدائق، والمياه.

وحدثني شيخنا الرحَّالة، الشيخ خليل الخَالدي، المقدسي، رئيس محكمة النقض والإبرام بالقدس، وأحد أثريائها وأعيانها المعروفين، وقد رحل إلى البلاد شرقاً وغرباً، وجال ودخل المغرب والأندلس، حدثني لمَّا اجتمعتُ به في القاهرة سنة 1358 هـ أنه ما رأى منظراً في بلد من البلدان التي دخلها شرقاً وغرباً مثل منظر طنجة البهيج، قال لي: لاسيما منظر (مَـرْشَان) المُطِل على بحر الزقاق.

وقد كان رحمه الله تعالى يتمنى أن تتهيأ له الأسباب بعد هجرته من فلسطين عند فتنة العرب مع اليهود للسكنى ببلدتنا طنجة، ولكنَّ المنية عالجته أثناء إقامته بمصر رحمه الله تعالى.

وقـد جُلتُ أنا أغلب مدن القطر المصري، ودخلتُ إلى الجزائر، وتونس، فما رأيت في هذه الأقطار مدينة لها من المحاسن، والمناظر الطبيعية الجميلة ما تفُـوق به طنجة وتمتاز به عليها؛ وهذا يشهد به كل مَن جال ودخل البلاد.

وقد جاء في «دائرة المعارف»[1] في وصف طنجة ما لفظه:

((...طنجة ثَغْـر حصين في مراكش على مقربة مِن مدخل بُغَاز جبل طارق الغربي في - **16**- **35**-**37** من العرض الشمالي، و **30**-**38**-**5** من الطول الغربي، موقعه على رابية تُـشْرف على خليج متسع، تكتنفه الأسوار، وبه عدة حصون، منظره من البحر بديع لِمَا في موقعه من التحدير، فتُـطل أنحاؤه على البحر...)) اهـ

ومما وصفها به لسان الدين بن الخطيب في «مِعْـيار الاختيار» قوله: ((... هذي سماء بروج، وهذي أنهار مروج، وكلاهما مركب سرور وسروج، ومسمع فروج..)).

فقد جمعت بلدتنا طنجة الفضلين فضل الحس والمعنى، وحازت الشرفين، وتطاولت على الفرقدين. فهل يستطيع أحد بعد هذا أن يَلْمِزها بعيب أو يصفها بشَيْن؟ وقد أصبحت فضائلها مجْلُوةً كالعروس عند زفافها، ومزاياها ظاهرة ظهور الشمس عند شروقها.

ولنمسك عنان القول في المقام، ولنكتف بما سطرناه وحبَّرْناه عما سواه، وليعلم اللبيب أني ما قلتُ إلا ما ثبتَ لديَّ، وما شهِدتُ إلا بما عـلمْتُ، ولم أسلك طريق التحَـيُّز والحمية، ولا القول بالغرض والهوى والعصبية.

وما عَليَّ إذا قـلتُ مُعْـتَـقَـدي

دَعِ الـجَـهـول يـظُنُّ العَـدْل عُــدْوانا

1- انظرها، للبُسْتاني، 11 / 339.

وكان الفراغ منه ليلةَ الثلاثاء غُرَّة رجب الفرد الحرام، سنة خمسٍ وسبعين وثلاثمائة وألف، بثغـر طنجة الميمون. والحمد لله أولاً وأخيراً، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

تقاريظ الكتاب

تَقْريظ فضيلة العلامة الفقيه
سيدي العربي التمساني الطنجي

ولمّا اطّـلع على هذا الكتاب فضيلة العلامة الفقيه سيدي العربي التمْسَمَاني، الطنجي، قاضي مدينة طنجة سابقاً، جادت قريحته الوقادة بهذا التقريظ النفيس:

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه وعبده وعلى آله وأصحابه القائمين بحمل شريعته مِن بعده.

وبعده، فقد أطلعني الفقيه العلامة الشريف سيدي عبدُ العـزيز ابنُ شيخنا، الفقيه العلامة المحدِّث، الصوفي الشهير، سيدي محمد بن سيدي الصدِّيق الغماري، على هذا التأليف الخاص بمدينتنا طنجة المحروسة بالله، وما سبق فيها من محاسن ملموسة كانتشار العلم في ربوعها، قبل انتشاره فيما سواها من مدن المغرب كلها، وكالسبقية التي حازتها في علم الحديث، والفقه، والأدب، والقرآت، وامتيازها الخاص باجتماع نبيِّ الله تعالى موسى عليه السلام والخضر بساحلها، على القول الأصح مِن أنَّ

مجمع البحرين الذي اجتمعا فيه هو بحر الزقاق المتصل بها.

أما ما تقدم فيها من جهابذة العلماء فهذا يشهد به التاريخ حسبما بيَّـنَه المؤلف مفصلا ضمن هذا التأليف. ويكفي على كثرتهم بها ما نقله رحالتها ابنُ بطوطة في رحلته مِنْ أنه لمّا حج في العام الثاني من رحلته من طنجة، التقى بمكة مِن علماء طنجة ثمانية عشر عالماً سمّاهم بأسمائهم. فما ظنُـك ببلدة يقف مِن علمائها في عام واحد بموسم الحج ثمانية عشر عالماً، وبإضافته هو إليهم يصيرون تسعة عشر؛ فهذا العدد الضخم من العلماء الذين صادفهم في الموسم في سنة واحدة، دالٌّ على كثرة مَن خلفوه بها من العلماء. ويكفي أيضاً في فخرها نسبة يحيى بن يحيى الليثي حامل مذهب مالك إلى الأندلس إليها، وهو مَنْ هو، حسبما يُعلم من ترجمته في غير ما تأليف.

لكن هذه البلدة مهضومة الحقوق، مقابلة من بعض أبنائها و رضعاء ألبانها بالعقوق، وقد استدل المؤلف حفظه الله على قِدمها وانفرادها في القطر المغربي عن جميع ما سواها من المدن بما فيه كفاية ومقنع؛ فجزاه الله تعالى أفضل ما جزى به الأولياء، وسلَك بنا وبه مسلك الراشدين الأوفياء. والسـلام.

في أواسط رجب الفرد الحرام، عام خمسة وسبعين وثلاثمائة وألف.

عبدُ ربِّه العَرْبي بن محمد التمسماني لطف الله به.

تقريظ العلامة الأصولي
سيدي عبد الحي بن الصديق

وهذا تقريظ لشقيقنا العلامة المحدِّث عبد الحي بن الصدِّيق الطنجي:

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين.

أما بعـد:

فإن هذه الرسالة الفريدة والبحث القيم الذي عالج فيه شقيقنا العلاّمة المطّلع، المحَدِّث سيدي عبد العزيز، بأسلوب عذب وعبارة رائقة رائعة، مسألة من أهم المسائل التاريخية التي تتعلق بماضي مدينتنا طنجة العلمي، لدليل قاطع وبرهان ساطع على أن طنجة كانت منذ قديم الزمان مركزاً عظيماً من مراكز العلوم، والفنون، والآداب، وميداناً من ميادين الثقافة العربية الإسلامية، بمن كان فيها من أئمة العلم وعظماء رجال الأدب والشعر؛ كما تفيده دُرَرُ النقول التي عرضها المؤلف على

القراء في رسالته هذه، وجواهرُ النصوص التي غاص عليها فاستخرجها من أصدافها، وحَـلىَّ بها جِـيد بحثه النفيس الذي لم يسبق أن نسج أحد من المؤلفين على منواله فيما نعلم.

فهو أول من أظهر هذه الحقيقة التاريخية التي يجهلها الكثير من أهل العلم، وأزاح عنها ستار الإهمال مؤيداً عمله الجليل الذي قام به خدمة لوطنه، وذبّـاً عنه بما لا يدَع شكاً لمرتاب في أن لبلدتنا تاريخاً حافلاً مجيداً، وتراثاً خالداً مسجلا في بطون كتب التاريخ والأدب، لا تنال منه الترهات الباطلة، ولا تطمس معالمه الدعاوي العارية عن البرهان.

وفرْقٌ واضح، وبَـوْنٌ شاسع بين رأي مسند بحجة لامعة دامغة، ودعوى مجردة عما يثبتها.

ولم يقصد المؤلف أن يستقصي ويستوعب هنا ذكر النصوص الدالة على فضلها ومكانتها العلمية، وإنما أراد أن يضع تحت نظر القارئ ما يكون فيه الرد المحكم، والنقض الصريح لدعوى مَن زعم أنها من المدن التي لم يُعْرف لها فضل في التاريخ، ولم يتقدم بها أحد مِمَّن يُعرف بعلم أو صلاح.

ولاجدال في أن ما أتى به شقيقنا من النصوص التاريخية كافٍ وافٍ بما أراد، لأن السالبة الكلـية تنقض بموجبة جزئية. ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

طنجة 18 رجب سنة 1375

عبد الحي بن محمد بن الصديق الطنجي

تقريظ الفقيه العدل
السيد أحمد بن محمد الحاج المفضل السعيدي

وقـرّظه العـدل الأرْضَى، الفقيه الأجَـلُّ الأديب، السيد أحمد بن محمد الحاج المفضل السعيدي، الطنجي، الكاتب الأول لسعادة مندوب جلالة الملك بطنجة، بهذا التقريظ القيم:

الحمد لله حمداً يوافي نعمه، ويكافي مزيده، ونشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفِيُّـه وخليله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه القائمين بالمحافظة على شريعته ونصرتها مِن بعده.

هذا، وقد طلب مني الأخ في الله، الشريف العلاّمة، المُحدِّث الدرّاكة المحقق، سيدي عبد العزيز بن شيخنا ومِنَّـة الله علينا الشريف العلامة المُطَّـلع، الجامع بين عِلمي الظاهر والباطن، الأشهر، رمز السلف الصالح في القرن الرابع عشر، سيدي محمد بن وليِّ الله تعالى سيدي الحاج الصِّديق، ابن سيدي الحاج أحمد بن عبد المؤمن الغماري الطنجي، الاطلاعَ على تـأليـفه الذي سمَّاه «سِـراج الـدلـجة في فضل طنجة»، وإبداء كلمة بقدر

الإمكان في شأنه. وإني وإن كنتُ لستُ من أهل هذا الميدان، فإني أحببت أن أتبرك بكَـتْب كلمتي هذه نزولاً عند رغبته. فـأقـول:

بَعْـدَ أن اطلعْتُ على هذا الكتاب الذي وضعه مؤلفه رعاه الله في فضل مدينة طنجة، ألفَـيْته كتاباً قيماً في موضعه، جامعاً مانعاً في أسلوبه، حيث أجاد فيه مؤلفه وأفاد، وصحَّح وأباد، وأزال ما كان عالقاً بالأذهان السقيمة في حق هذه البلدة، التي لو لم يكن مِن فضلها إلا وجود والد المؤلف بها طيلة حياته ينشر العلم والمعارف في الأوساط، ويبُثُّ الهداية والإرشاد في الناس، حتى ترك رحمه الله تعالى وقدس ضريحه زمرة وافرة من أهل العلم، ينتفع بها عموم سكانها إلى اليوم، زيادة على الزمرة العلمية التي أنجبها من صلبه. فكان من نتيجة ذلك أن قيض الله تعالى من أنجاله من يقوم بهذه المهمة، ألا وهي إزاحة ستار الجهل بتاريخ هذه المدينة عن حقيقتها، وبيان ما امتازت به من فضل، وكرم، وعلم، وأدب، وعرفان، وفخار.

ففي ما قاله كفاية، وعليه المُعَوَّل في البداية والنهاية. فجزاه الله تعالى عن مسقط رأسه خيراً، وكَـثَّر أمثاله وأمثالَ أمثاله ممن يقول الحق **حب من حب**، أو كره مَن كره. وهو سبحانه وتعالى حسبنا ونِعم الوكيل، والله يقول الحق و هو يهدي السبيل.

وحُرِّر في سابع وعشري رجب الفرد الحرام، عام خمسة وسبعين وثلاثمائة وألف.

عـبد ربه المفتقـر لمولاه: أحمد بن محمد الحاج المفضل

السعيدي، الطنجي. لطف الله به.

فهرس الموضوعات